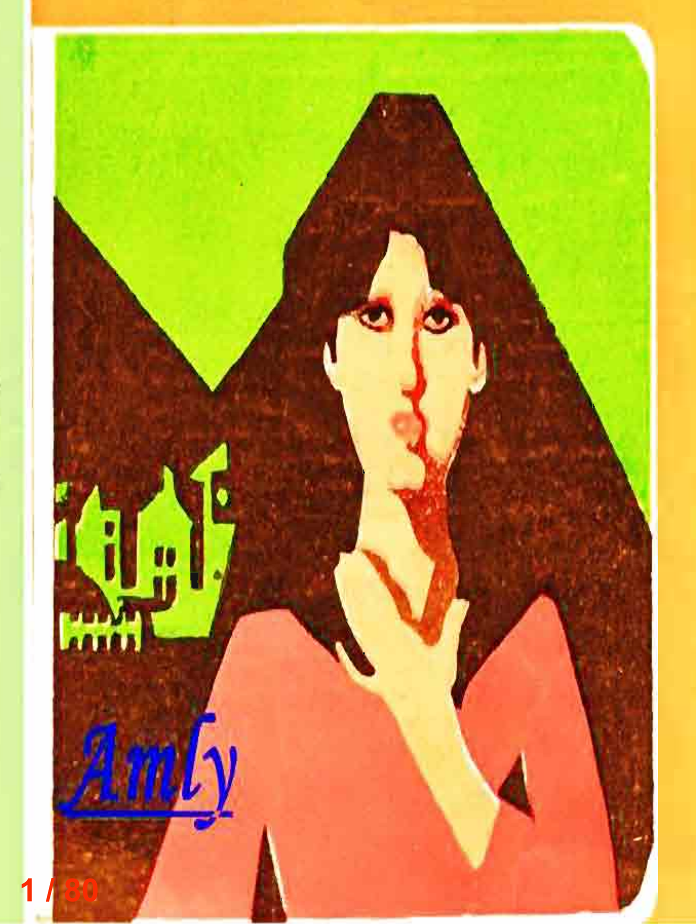
روايات
الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

روايات الهلال





ملائكة بين اللهب

بقلم

فيكتور هوجو



محمود مسعود

دار الهلال

مقدمة

فلما اجتمع لاديب فرنسى مثل ما اجتمع لفكتور هوجو من صفات اهلته للصدارة فى ميدان الادب والفكر واظفرته بالخلود فى طليعة الشوامخ الذين يعتز بهم الأدب العالمى : فهو قصاص . وشاعر ، وفيلسوف ، ضرب بسهم وافر فى كل مجال من هذه المجالات بعشرات الروايات والمجموعات الشعريه والبحوث الفلسفية التى تفتقت عنها عبقريته الفذه خلال القرن التاسع عشر ، فكان اديب فرنسا الأشهر بلا منازع .

وفى هذه الرواية التى اصدرها عام ١٨٧٤ تجلت عبقريته كقصاص وشاعر على أروعها . فالقصاص هنا أزجى لنا مادة روائية محبوكة الأطراف ، قوية العقده ، فريدة الاحداث . جمع نسيجها من تاريخ الثوره الفرنسيه بعد أربع سنوات من قيامها حين كانت فى مهب الأعاصير الداخلية والخارجية تتألب عليها فلول الملكيين فى الداخل متحالفة مع الجيوش الأوروبية الغازية التى كانت تسعى لسحق الثورة درءا لانتشارها فى ربوع اوروبا . ومع ان أحداث هذ الثورة كانت مادة خصبة لكثير من الروائيين الفرنسيين وغيرهم من مشاهير الكتاب العالميين ، فان فكتور هوجو قد جلا لنا هذه الحقبة العصيبة من تاريخها فى مزاج رائع جمع فيه بين الوقائع القومية والأحداث الفردية على نحو فذ فيه التفاعل الوثيق بين الامة والافراد وفيه الصراع العنيف بين المبادىء والقيم وبين النوازع الذاتية والأهواء النفسية فى حبكة قصصية باهرة ومؤثرة تجردت من رتابة السرد وجعلت منها دراما ملحمية من طراز تلك الملاحم الكبرى التى لا تجود بها سوى عبقريات فحول الادب والفكر الانسانى .

واذا كان فكتور هوجو القصاص قد بلغ القمة فى هذه الحبكة المزدوجة روائيا وتاريخيا ، فان فكتور هوجو الشاعر قد جاوز هذه القمة بل تناهى الى ذرى اسمى واسنى فى تناوله للاحداث وعرضه

لشتى المواقف باحاسيس الشاعر الملهم النافذ الى اغوار النفس البشرية والمتادى الى السرائر والفاقة لتفاعلاتها فى سموها ونبالتها او هوبها وصغارها ، فى ايثارها وتضحياتها او انانيتهـا ونكولها ـ حتى لا تملك وانت تتابع هـذه التفاعلات جميعا وتلابس احتدامها وعنفوانها الا ان تتاثر بها هذا التاثر الغلاب الذى يهز النفس من الاعماق ويجرى الدموع فى المآقى فى احساس فياض بالمشـاركة العاطفية القاهرة .

انظر الى الشاعر وهو يسوق باحساسه المرهف ومشـاعره الانسانية الاصيلة تلك الصورة المؤثرة فى غمار الحـرب الوحشية الدائرة بين اجناد الجمهورية (الزرق) وبين اشياع الملكية (البيض) التى تسيل فيها الدماء انهارا ويعم القتل والـدمار كل شىء ، حين تحيط شرذمة من الأولين بارملة ذات اطفال ثلاثة كانوا يهيمون على وجوههم حيارى مشدوهين جائعين ظامئين ليس لهم طعام الا الحشائش والبذور ولا سقف يؤيهم سوى اديم السماء ، وحين يدنو قائدهم وينحنى فوق الطفلة الرضيعة ويتفرس فيها ، فتتخلى عن ثدى امها متطلعة اليه بعينيها الزرقاوين الصافيتين ثم ينفرج ثغرها الغض عن ابتسامة ملائكية ، فاذا الجاويش الوالغ فى الدماء تنحدر دمعة كبيرة الحجم فـوق وجنته وتستقر فوق شاربه الضخم ، واذا هو يقرر أن (تتبنى) الفرقة هؤلاء الأطفال الثلاثة الأيتام .

***

وفكتور هوجو الشاعر هو الذى يدير ذلك الحوار الانسانى الرائع بين النبيل المتصدى لقيادة قوى (البيض) وبين المتسـول الذى يخف لانقاذه من مطارديه (الزرق) رغم المكافاة الجزيلة التى رصدت ثمنا لراسه : اذ يقول المتسول فى سياق الحـوار تفسيرا لهـذه البادرة : (قلت لنفسى يا مولاى : هذا مخلوق اشد بؤسا منى . اننى املك ان اعيش وان اتنفس ، اما هو فلا . نحن اخوان فى البلاء يا مولاى . فانا اطلب القـوت ، وانت تطلب الحيـاة . نحن متسولان) . واذ يمضى النبيل فى سبر اغوار المتسول مشيرا الى المكافاة التى يمكن ان يفوز بها بالابلاغ عنه ، يقول المتسول ببساطة : (هذا ما فكرت فيه بالضبط . عندما رأيتك وحيدا مطاردا قلت لنفسى : هذا رجل يستطيع الانسان بتسليمه ان يقتنى مدى الحيـاة ... فلنسرع اذن باخفـائه . مالى يا مولاى وهـذه الحرب التى تدور من حولى ؟ انها تحدث فى محيط لا يهمنى . هناك مسائل اهم منها

تتجدد : فالشمس تشرق وتغرب ، والقمر يستدير ويتضاءل ... هذه هى المسائل التى تعنينى ... وتتكلم يا مولاى عن الفقر والغنى ؟ انه موضوع مخيف . انه اس البلاء والكوارث . الفقراء يلتمسون الغنى . والاغنياء لا يحبون ان يفتقروا . احسب ان هذا هو تلخيص موضوع الصراع الاكبر فى الحياة ، وان كنت لا اشغل نفسى بهذه المسائل ولا ادس انفى فيها) .

***

ويدير فكتور هوجو الشاعر حوارا انسانيا آخر بين هذا المتسول ذاته وبين الارملة ام الاطفال الثلاثة عندما ينقذها وهى بين الموت والحياة بعد ان علم ان النبيل قائد (البيض) امر باطلاق الرصاص عليها وانتزع رجاله اطفالها الثلاثة وحملوها الى حيث لا تعلم الام المكودة . ان المتسول ليحزن اشد الحزن حتى يناجى نفسه : (ان مثل هذا النبيل يعرف الانسان وقت الضيق ، فاذا ذهب عنه تنكر له وادار ظهره . ليتنى لم انقذه . ان الخير قد ينقلب شرا احيانا ، فان الذى ينقذ الذئب يقضى على الغنم) . ويبلغ الحزن والتندم من المتسول مداه تأثرا بحالة الأم التى فجعت بفقد اطفالهـا الثلاثة خصوصا وهى تندبهم بهذه الكلمات المؤثرة : (لم يكن لى فى الدنيا سواهم . ما أنا بدون أولادى ؟ اننى اشعر بالحوادث تجرى من حولى ولكننى لا افهمها . انهم قتلوا زوجى واطلقوا الرصاص على ... ولكننى لا افهم شيئا) . وتتجلى للمتسول حقيقة المأساة فى بشاعتها فيفكر : كانت التعسة اما ، فلم تعد كذلك . كانت تحنو على اطفالها ، ففقدت هذه الصفة ، ولكنها لا تستطيع ان تذعن للأمر الواقع . انها تفكر فى طفلتها الرضيعة التى كانت تمتص حياتها ، وكانت مع ذلك سعيدة قريرة العين بها ، لانها من حياتها تمدها بحياة جديدة . يا لعاطفة الأمومة المعقدة التى لا يمكن فهمها على ضوء العقل والمنطق ، لكنها غريزة بصيرة لا تضل ولا تخطىء) .

***

ولا يمل فكتور هوجو الشاعر من التمسك باهـداب الرحمـة والانسانية حتى فى الحرب المضطرمة بين (الزرق) و (البيض) . استمع اليه فى هذا الحوار الدائر بين قائد (الزرق) الذى يقوم مذهبه على ضرب العدو بلا رحمة فى الميدان والعفو عنه بعد المعركة ، وبين مندوب (لجنة الأمن العام) فى باريس المكلف بالاشراف على سير الحرب والذى يعتنق مذهب القسوة والارهاب :

(المندوب — لم أطلقت سرا راهبات الدير ؟
القائد — انا لا اشهر الحرب على النساء .
المندوب — المراة الواحدة تفوق فى مقتها عشرة رجال . لم رفضت ان تقدم الى المحكمة الثورية اولئك القس الشيوخ المتعصبين بعد أن اسرتهم ؟
القائد — لأننى لا اشهر الحرب على الشيوخ .
المندوب — ان ارباب الشعور البيضاء أقدر على اذكاء روح التمرد والعصيان . لم لم تامر باعدام الفلاحين الأسرى الثلثمائة الذين اخذتهم فى المعركة الأخيرة ؟
القائد — لأن القائد الملكى عفا عن أسرى الجمهوريين ، فاردت ان يعرف أن الجمهورية تعفو عن أسرى الملكيين .
المندوب — كن على حذر أيها القائد . ان عام ٩٢ هو ادق مرحلة فى تاريخ الثورة . واخطر ما يؤذى الجمهورية هو هذه الرحمة التى تحرص عليها .
القائد — اننى احذرك بدورى حتى لا توصم الجمهورية بالارهاب والطغيان .. ان الحرية والمساواة والاخاء هى المبادىء الخالدة التى تقوم عليها الطمانينة ويستتب بها السلام . فلم نطبعها بطابع العنف والبطش ؟ لا يحتاج الانسان الى فعل الشر توسلا الى الخير . ولا يفسد مبادىء السلام والتسامح غير القسوة والتنكيل — لنكن فى القتال اعداء اعدائنا . أما بعد النصر فلنكن اخوانا) .

***

ويمضى فكتور هوجو الشاعر فى سوق الصور الحافلة بالمشاعر الانسانية . فقد ادت فظائع الحرب الاهلية الى الزج بالاطفال الابرياء فى برج منعزل واتخاذهم رهائن مستهدفين للنسف ، ويصف الشاعر حالهم رغم الهلاك المتربص بهم هذا الوصف المؤثر : (استيقظ الاطفال الثلاثة ، وفتحت الطفلة الصغرى عينيها أولا . ان استيقاظ الاطفال كتفتح الأزهار فى أكمامها الفضة . وبرغم حالتهم الزرية وأسمالهم البالية كانت تحوطهم هالة من النور ، ومظهرهم يثير الحب والانعطاف ... وفى ختام نهارهم هذا الحافل انحدرت الشمس فوق الأفق ولامست حافته ، وساد سكون عذب يملأ النفوس راحة وطمأنينة ، وتجمع هؤلاء الأطفال كتلة واحدة نصف عارية كأنهم صور من كيوبيد . كانوا صورة مجسمة للنقاء والطهر ، ولم تتجاوز أعمارهم مجتمعة تسعة أعوام . وكانت الابتسامات العذبة المنطبعة

على شفاههم صدى للاحلام السماوية التى يسبحون فيها . وربما كانت الملائكة فى هذا الوقت تهمس فى اذانهم) .

***

ان هؤلاء الملائكة هم محور القصة عند فكتور هوجو الشاعر ، وهو يصورهم لنا مره اخيرة وقد عثرت عليهم الام التاعسة آخر الامر فى اتون من اللهب وقد عجز جيش (الزرق) المنتصر عن انقاذهم من الموت حرقا فى البرج المنعزل . ولم يكن ثمة من يستطيع انقاذهم سوى النبيل قائد (البيض) . فهل يعمد الى انتشالهم من براثن الموت فيقع فى الاسر مرة اخرى ام يمضى الى بابه لجمع شمل قواته المدحورة واستئناف القتال ؟ لعمرى ان فكتور هوجو القصاص والشاعر والفيلسوف قد بلغ غاية الاعجاز فى عرضه لهذه المواقف الحاسمة واستخلاصه للصور الحافلة بالمشاعر الجياشة والمواطن التى يحتدم فيهـا الصراع بين العقل والعاطفه وبين التعلق بالحياة والتضحية بها تلبية للمنازع الانسانية النبيلة . ان هذا الصراع العقلى والعاطفى لا يلبث ان ينتقل الى طرف آخر من أطراف المعركة هو قائد (الزرق) الذى يمتحن كذلك بموقف عسير أشد العسر هو البت فى مصير ذلك الذى ضرب اروع مثال فى البطولة والاستجابة للدوافع الانسانية . فهل يقتله أو يحرره ؟ فى الاولى عذاب لنفسه ، وفى الثانية تنكر لواجبه . فهل يستجيب لنداء العاطفة أم يغلب داعى العقل ؟ ان تصرف القائد الجمهورى الشاب افضى به الى مثول امام المحكمة الثورية برئاسة مندوب (لجنة الأمن العام) الذى كان له بمثابة الاب الروحى بعد ان تعهده بالرعاية منذ صغره وأنزله من نفسه منزلة الابن . وفى محاكمة رهيبة تصارعت فيها المبادىء والمثل واشتد فيها النضال بين نوازع العاطفة ودواعى العقل وموجبات القانون والنظام يسدل الستار على مأساة مزدوجة تحبس الأنفاس فى الصدور وتذكى اشد اللوعة ، ولكنه رغم ذلك ختام ملحمى لا يجليه سوى فكتور هوجو القصاص والشاعر والفيلسوف ، صاحب الشوامخ ، واديب الانسانيات الاكبر .

فهى اذن تحفة رائعة نهديها الى شباب هذا الجيل ، اذكاء لروح الاطلاع على الآداب العالمية الكلاسيكية فى نفوسهم ، وحفزاً لهم على الارتشاف من منابعها الغزيرة .

محمود مسعود

الفصل الأول

في غابة سودراى

في عام ١٧٩٣ كان الصراع على اشده بين جيوش الجمهورية والملكية في فرنسا ، وكان سيل المتطوعين من انصار الجمهورية يتدفق تباعا من باريس الى مقاطعتى (بريتانى) و (فنديه) حيث رابطت القوات الملكية . وصدرت أوامر (مجلس الأمة) في باريس الى المتطوعين ان يقتلوا اعـداءهم وأن يبيدوهم عن آخرهم بلا أدنى رحمة . على انه ما كاد ينتهى شهر مايو من هذا العام حتى خسر الجمهوريون من متطوعى باريس وحدها ثمانية آلاف مقاتل ...

في اواخر مايو المذكور طوحت الحرب بفرقة من الجند الى غابة « سودراى » في مقاطعة (بريتانى) وأصبح عدد جنود هذه الفرقة لا يتجاوز الثلثمائة بعد ان التهمت المعارك المريرة معظمهم ..

كانت غابة سودراى كثيفة ذات اشجار فارعة واغصان متشابكة لا تكاد تنفذ منها اشـعة الشمس . ولم تكن بها طرق معبدة ولا مسالك معروفة . وقد اشتهرت بالمعارك الطاحنة التى نشبت في ارجائها بين ابناء الوطن الواحد ، ولذلك كان جنـود الفرقة المشار اليها يتقدمون في ظلامها في تمام الحـذر واليقظة ، وهم يتوقعون بين لحظة واخرى ان يقعوا في كمين اعده لهم اعداؤهم .

تقدم جنود الاستطلاع بقيادة جاويش وساروا في المقدمة يستكشفون الطريق . ورافقتهم امرأة معـروفة باسم (الزميلة) .. فقد استحدثت باريس في ذلك العهد تقليدا جديدا اباح للنساء مرافقة جيوش المتطوعين في ساحات القتـال لحث الرجال وامدادهم بما يحتاجون اليه من المشروبات .

وفيما كان هؤلاء الجنود يتقدمون . وقفوا فجاة منتفضين ، فقد

سمعوا صوتا خافتا صادرا من بين الاشجار ، وراوا بعض الاغصان تتحرك حركة يسيرة لا تكاد ترى . وما هى الا دقيقة حتى احاطوا بتلك البقعة ، وصوبوا بنادقهم اليها ، ووضعوا اصابعهم على الزناد منتظرين اشارة من الجاويش باطلاق النار ..

على ان هذا الاستعداد لم يمنع (الزميلة) من دس رأسها في فرجة بين الاغصان ، وقبل ان يصـدر الجاويش امره صاحت المراة : ...را :

ثم التفتت الى الجنود قائلة : لا تطلقوا النار ايها الرفاق .

وتقدمت المراة بين الاغصان يتبعها الجنود . فوصلت بعد قليل الى بقعة بين الاشجار تشبه الكهف ، وراى الجميع امراة جالسة على الارض المكسوة بالعشب ترضع طفلا ، وقد رقد فوق ركبتيها طفلان آخران .

هتفت (الزميلة) : ماذا تفعلين هنا ؟

رفعت المراة راسها ، فاستطردت (الزميلة) بخشونة :

ـ هل جننت حتى تاتى الى هنا ؟ . لو مضت لحظة اخرى لكنت الآن ممزقة الجسد !

راحت المراة تتطلع في حيرة وجزع واضـطراب الى السحن الوحشية والبنادق المصوبة والحراب المشهرة التى تحيط بها من كل جانب وكأنها تحت تأثير كابوس مريع ، ثم استيقظ الطفلان وبكيا ، وقال الاول انه جائع والثانى انه خائف . اما الرضيع فكان منهمكا في امتصاص ثدييها .

هتف الجاويش حينما رآها عاجزة عن النطق لفرط ارتياعها :

ـ لا تخافى . نحن جنود الفرقة الحمراء . من أنت ؟

كانت المراة صغيرة السن ، نحيلة الجسم ، شاحبة اللون ، يكسوها رداء من الصوف ينتهى بغطاء فضفاض على راسها . وكانت عارية الصدر حافية القدمين ، ينزف الدم منهما .

قال الجاويش حينما راى حالتها وسكوتها : هى متسولة .

وقالت (الزميلة) في شىء من الرقة : ما اسمك ؟

غمغمت المراة آخر الأمر واجابت متلعثمة : ميشيل فليشار .

ربتت (الزميلة) على راس الطفل الرضيع بيدها الكبيرة وقالت :

ـ كم عمر هذا الطفل ؟

لم تجب المراة كانهـا لم تفهم ولما كررت (الزميلة) سؤالها اجابت :

— آه ! .. سنة ونصف .

قالت (الزميلة) : هو كبير .. يجب الا يرضع بعد الآن . يجب فطامه . سنعطيه حساء ..

دب الاطمئنان فى نفس المرأة .. وذهب الخوف عن الطفلين وجعلا ينظران الى الجنود بفضول .. فقالت الام :

— هما جائعان ! .. لم يعد بعد عندى لبن .

فهتف الجاويش : سنعطيكم طعاما .. لكن ليس هذا كل شيء .. ما هو رايك بالسياسى ؟

نظرت اليه المرأة دون ان تجيب ، فقال لها :

— هل سمعت سؤالى ؟

اجابت المرأة فى تلعثم : ادخلت الدير فى صغرى . لكنى متزوجة ولست راهبة .. وقد علمتنى الراهبات كيف اتكلم الفرنسية .. ثم اشعلت النار فى القرية .. فهربنا بكل سرعة حتى لم اجد وقتا للبس حذائى .

— انى اسالك عن رايك السياسى ؟

— لا افهم معنى هذا الكلام .

استطرد الجاويش : يوجد جاسوسات بين النساء .. ونحن نحكم عليهن بالموت . تكلمى ! ما هو الحزب الذى تنتمين اليه ؟

كانت المرأة تنظر اليه وكانها لا تفهم ما يقول . ولما كرر سؤاله اجابت :

— لا اعرف .

— كيف ذلك ؟ .. الا تعرفين وطنك ؟

— آه .. وطنى ! . نعم .. اعرفه .

— حسنا .. اين هو ؟

فاجابت المرأة : مزرعة (سيسوانيار) ، فى جهة (بازى) .

ظهرت على وجه الجاويش دلائل الحيرة .. وفكر قليلا . ثم قال :

— لكن ليس هذا هو الوطن المعروف .

فاجابت المرأة : هو وطنى .

ثم استطردت بعد تفكير : فهمت يا سيدى .. انتم من فرنسا ، اما انا فمن (بريتانى) . وهما جهتان مختلفتان .

فهتف الجاويش : لكنهما فى وطن واحد .

فاجابت المرأة : انا من (سيسوانيار) .

فسال الجاويش : ليكن . وهل تنتمى عائلتك الى تلك الجهة ؟

— نعم .

— وما هى مهنتها ؟

— مات اهلى كلهم . ليس لى أهل فى الدنيا .

— لكن لك اقارب .. او كان لك اقارب . من انت ؟ تكلمى .

ظهرت على وجه المرأة دلائل الحيرة والاضطراب وهى تصغى الى استجواب الجاويش .. ورات (الزميلة) ضرورة التدخل .. فاخذت تربت بيدها على رءوس الاطفال الثلاثة وقالت : ما اسم الرضيع ؟ هى بنت .

فاجابت الام : اسمها جورجيت .

والولد الاكبر ؟

— رينيه جان .

— والاصغر ؟

— آلين .

فقالت الزميلة : هم جميعا ظرفاء . يكاد الانسان يحسبهم من ذوى الجاه .

تابع الجاويش استجوابه باصرار ، فقال :

— الى اى حزب تنتمين ؟

— لا أعرف .

— هل انت من الزرق (الجمهوريين) ؟ .. هل انت من البيض (الملكيين) ؟ مع من انت ؟

— انا مع اطفالى .

ساد السكون قليلا .. ثم استانف الجاويش اسئلته :

— تكلمى عن ابويك .. قولى معلوماتك عنهما .. انا ادعى الجاويش رادوب .. من شارع (كنيسة ميدى) فى باريس .. وقد ولد ابى وامى فى تلك الجهة .. من السهل أن اتكلم عن أبوى .. تكلمى عن ابويك ؟ .. من هما ؟

— اسمهما فليشار .. هذا كل شيء .

— لكن لكل انسان مهنة .. ما هى المهنة التى كان يحترفها ابواك ؟

— كانا من العمال .. وكان ابى عاجزا عن العمل .. مقعدا . بسبب الضرب الذى ناله بأمر سيده . سيدنا جميعا (حاكم الاقطاع) ، لان ابى سرق ارنبا من الغابة .. وهى جريمة عقابها الموت .. لكن

السيد اشفق على ابي ، وامر بضربه مئة جلده .. وبات ابي مقعدا .

جلست الزميلة الى جانب المراة وجذبت الطفل الاكبر الى حجرها فاستسلم لها ، وقالت :

ــ اسمعي ايتها المراة الطيبة .. ان أطفالك لطفاء .. كل الاطفال كذلك في الحقيقة .. بامكاني ان اخمن عمر كل منهما .. عمر الاكبر أربع سنوات .. والثاني ثلاث .. والآن .. لا تخافي .. من الواجب ان تنضمي الى الفرقة .. مثلي .. ان اسمي اوزارد .. ووظيفتي هنا تقديم الشراب للجنود اثناء القتال .. ان قدميك تشبهان قدمي .. ساعطيك زوجا من احذيتي .. تعالي معنا .. ان الجنود اناس طيبون .. ستكونين (زميلة) الفرقة الثانية . ساعلمك كيف تقومين بعملك .. وهو سهل جدا .. ستحملين اناء الشراب في يد وناقوسا في اليد الثانية .. وتشقين صفوف الجنود بين صوت المدافع ودوى الرصاص ، وتنادين : « من يريد ان يشرب يا أولادي ؟ .. » هذا هو كل عملك .. تعالى معنا .. واذا قتلت تحلين محلي .. لا تخافي .

لم تجب المراة .. فاستانف الجاويش اسئلته :

ــ وزوجك يا مدام ؟ .. ماذا يعمل ؟ .. وماذا جرى له ؟

ــ قتلوه ..

ــ اين ؟

ــ في الغابة ... منذ ثلاثة ايام .

ــ ومن قتله ؟

ــ لا اعرف .

ــ كيف ذلك ؟ لا تعرفين من قتل زوجك !

ــ لا .

ــ هل قتله احد الزرق . هل قتله احد البيض ؟

ــ قتلته رصاصة .

ــ وماذا كنت تفعلين بعد قتل زوجك ؟

ــ كنت أهرب مع اطفالي .

ــ الى اين تذهبين بهم ؟

ــ انى اسير دائما الى الامام .

ــ واين تنامون ؟ ..

ــ على الارض .

ــ وماذا تاكلون ؟

ــ لا شيء .. اعني بعض الكراز الجاف الباقي من السنة الماضية .. وبعض البدور المتساقطة .

قال الطفل الاكبر : انا جائع .

تناول الجاويش قطعة من الخبز من جيبه وناولها الى الام . فشطرتها نصفين واعطت كل طفل قطعة .. فجعلا ياكلان بشراهة .

فغمغم الجاويش : لم تحتفظ لنفسها بشيء .

فقال احد الجنود : لانها ليست جائعة .

فقال الجاويش : بل لانها ام .

واستانف الجاويش اسئلته : وانت الآن تحاولين الهرب ؟

ــ لا يوجد أمامي غير ذلك .

ــ تهربين في الحقول ؟ في اية جهة تصادفك ؟

ــ انى اجرى بكل قوتي .. ثم اسير .. ثم اسقط على الارض .

فقالت الزميلة : مسكينة !

واستطردت المراة : الناس يتقاتلون .. هم يتبادلون الرصاص في كل مكان حولي .. لا أعرف ماذا يريدون .. هم قتلوا زوجي .. وهذا كل ما فهمته .

لطم الجاويش الارض بقاعدة بندقيته ، وهتف :

ــ يا لها من حرب وحشية :

وقالت المراة : في الليلة الماضية نمنا في (تجويف) .

ــ انتم الاربعة ؟

ــ نعم .

فقال الجاويش : اذن نمتم واقفين .

ثم التفت الى الجنود واستطرد : ايها الرفاق .. ما يسميه هؤلاء الفلاحون (بالتجويف) هو جذع شجرة قديم مجوف يندس الانسان في داخله .. للمياة احكامها . ولا يمكن ان يكون كل الناس من اهل باريس .. ولا شك ان الصغار بكوا وهم في داخل الشجرة . وكم يكون عجب الانسان حينما يمر بجانبها ولا يرى شيئا ، ثم يسمع الشجرة تهتف :

ــ بابا ! ماما !

قالت المراة وهي تتنهد : من حسن الحظ اننا في الصيف .

ثم جعلت تنظر الى الارض في صمت واستسلام ، وقد نمت عيناها عن ابلغ آيات التعاسة والشقاء . والتف الجنود حول هذه الارملة ذات الأيتام الثلاثة الذين نبذهم العالم وحالفهم البؤس . وكانوا

يهيمون على وجوههم حيارى مشدوهين فى محيط حافل بالمعارك والملاحم ، جائعين ، ظامئين ، ليس لهم طعام الا الحشائش والبذور . ولا سقف يؤويهم سوى اديم السماء .

دنا الجاويش من المراة وانحنى فوق الطفلة الرضيعة وجعل يتفرس فيها . فتخلت الطفلة عن ثدى امها وحولت راسها بوداعه الى الوجه الضخم المطل عليها بشعره الكثيف الشائك ، وتطلعت اليه بعينيها الزرقاوين الصافيتين ، ثم انفرجت شفتاها الصغيرتان عن ابتسامة ملائكية .

امتثل الجاويش . فرأى الجميع دمعة كبيرة الحجم تنحدر فوق وجنته وتستقر على شاربه . ورفع الجاويش صوته قائلا :

ـ ايها الرفاق . ستكون الفرقة ابا . هل انتم موافقون ؟ سنتبنى هؤلاء الأطفال الثلاثة .

فصاح الجنود : تحيا الجمهورية !

فقال الجاويش وهو يضع يديه على الأم وعلى اطفالها :

ـ اتفقنا اذن . هؤلاء هم ابناء الفرقة الحمراء ، ابناء الثورة .

وثبت (الزميلة) فرحا . ثم انهمرت دموعها ، وعانقت الأم بحرارة وانفعال .

وردد الجنود هتافاتهم للجمهورية . بينما قال الجاويش للأم :

ـ تعالى معنا ايتها المواطنة .

الفصل الثانى

السفينة الحربية (كليمور)

ـ ١ ـ

انجلترا وفرنسا

فى أصيل اليوم الاول من شهر يونيو سنة ١٧٩٣ ، قبيل الغروب بساعة ، اقلعت سفينة من جزيرة جرسى فى بحر المانش واختفت فى طيات الضباب .

كانت السفينة (كليمور) ذات مظهر خادع . فهى سفينة تجارية فى الظاهر ، لكنها حربية فى الواقع ، فقد كانت تحمل فوق سطحها السفلى بطارية من المدافع الثقيلة مكونة من ثلاثين مدفعا ، وفى هذا ما يدل على سرية المهمة المعهودة الى السفينة (كليمور) .

كانت هذه السفينة تابعة للأسطول الانجليزى ، غير ان ضباطها وبحارتها كانوا جميعا من الفرنسيين الهاربين من وجه الثورة الفرنسية ، ومن الملكيين المخلصين . وهى قطعة من اسطول جرسى الانجليزى ، المعقود لواؤه للأمير الفرنسى دوفرن ، وبأمر هذا الامير انفصلت (كليمور) عن الأسطول وذهبت فى مهمتها السرية .

حملت السفينة قبل اقلاعها رجلا طويل القامة، متقدم السن، اشيب الشعر ، قوى البنية ، تلوح على وجهه دلائل القسوة والصرامة ، وتنم هيئته عن العزم الراسخ والباس الشديد . وكان يرتدى تحت عباءته سترة من جلد الماعز موشاة بالحرير من احد وجهيها بينما بقى وجهها الآخر خشنا يعلوه الشعر . وكان ينتعل حذاء طويلا . ومجمل هندامه يدل على انه من فلاحى شمال فرنسا .

ولما صعد هذا الرجل الى سطح السفينة رافقه اللورد بالكاراس حاكم الجزيره والامير دوفرن ، وجيلامبر مندوب الامراء الفرنسيين . وقال اللورد وهو يصافحه : « أتمنى لك التوفيق أيها القائد » .. وقال له الامير : « الى اللقــاء يا ابن العم » .. وحيـاه جيلامبر باحترام .

وبعد ساعة من اقــلاع السفينة ذهب جيلامبر الى بيته وبعث بالرســالة التالية الى احـد الامراء الفرنسيين فى قصر الدوق بوركشير :-

« سيدى — تم الرحيل . النجاح محقق . فى ظرف ثمانية ايام سيكون ساحل فرنسا الشمالى الغربى من جرانفيل الى سان مالو نارا مشتعلة » .

وقبل ذلك بأربعـة ايام ، تلقى ممثل الجمهورية الفرنسية فى جرانفيل الرســالة التالية ، محررة بنفس الخط الذى كتبت به الرسالة السابقة .

« ايها المواطن — فى غروب اليوم الاول من شهر يونيو ستقلع السفينة الحربية (كليمور) ومعها مدفعية مخبأة ، بقصد انزال رجل على الساحل الفرنسى ، هذه هى أوصافه .. طويل القامة ، ابيض الشعر ، كبير السن ، يرتدى ملابس الفلاحين ، له ايدى النبلاء .. سابعث اليك غدا بتفصيلات اوفى .. وسينزل هذا الرجل الى البر فى صباح اليوم التالى .. اخطر الطرادات .. استولوا على السفينة .. اعدموا الرجل بالمقصلة » .

— ٢ —

الاشراف والدهماء

غربت الشمس وساد الظلام . واخذت السفينة (كليمور) تشق طريقها بين الامواج تحت سماء تغطيها السحب ، قاصدة الى شاطىء سان مالو . ومع ان الطريق الذى اختاره قائد الدفة فيليب جاكوى كان طويلا ، الا انه غير مطروق من الطرادات الفرنسية ، وكان جاكوى يامل ان يصل الى الساحل الفرنسى عند الفجر اذ استمر اعتدال الرياح .

ســار كل شيء على ما يرام .. وقطعت السفينة مرحلة طيبة .. حوالى الساعة التاســـعة اضطرب الطقس ، وتعـالت الرياح الأمواج ، غير انها كانت محتملة ، لا خطر منها .

كان (الفلاح) يـسير ذهابا وايابا فوق سطح السفينة بخطوات ثابتة متزنة رغم اهتزاز السفينة العنيف . ولم يكن يكلم احدا ، غير انه كان يلقى الى القبطان بين حين وآخر بضع كلمات سريعة موجزة ، ينصت اليه القبطان باحترام كأنما هو قائد السفينة الفعلى .

وحوالى الساعة العاشرة جاء الــكونت دى برتوليه القبطـان والشيفالييه فيوفيل الضابط وشيعا (الفلاح) الى غرفته الخاصة ، وهى فى الواقع غرفة القبطــان . وقال (الفــلاح) حينما وقف فى الداخل :

— تعلمون أيها السادة اهمية التكتم . لا اريد كلمة واحدة حتى ساعة الانفجار . انتما وحدكما بين الموجودين هنا تعرفان اسمى .

فاجاب برتوليه : سنحمله معنا الى القبر .

فاستطرد (الفلاح) : اما انا فلن أبوح بهذا الاسم حتى لو واجهت الموت .

ثم اغلق باب الغرفة .

عاد القبطان والضابط الى سطح السفينة واخـذا يسيران جيئة وذهابا ويتبادلان الحديث . فقال برتوليه فى صوت خافت :

— سنرى اذا كان ضيفنا قائدا حقا .

فاجاب فيوفيل : هو معــدود فى الوقت الحالى فى مصـاف الامراء .. واذا كانت رتبته الحقيقية هى رتبة الماركيز ، فهو امير فى مقاطعة (بريتانى) .

— هل تعتقد انه سيحقق الآمال ؟

— بشرط ان يكون قوى الشكيمة .

فقال برتوليه : يعنى (شرس) .

تفرس القبطان والضابط احدهما فى وجه الآخر ، ثم قال الاخير :

— اصبت يا سيدى القبطان .. نريد رجلا شرسا . هذه حرب قاسية لا رحمة فيها ، النصر فيها لمن يريق الدماء بلا حساب . ان الجمهوريين قطعوا راس الملك لويس السادس عشر . فعلينا ان نقطع اوصالهم ونمزق اجسامهم شر ممزق . نعم . القائد المنشود هـو القائد الصارم الباطش . فى ساحات (انجو) لا يتقدم الجيش تقدما

مذكورا . لأن قوادنا يتسامحون . اما فى ميادين (رينز) و (ماريه) حيث القواد قساة غلاظ فالتقدم ظاهر ملحوظ .

وقبل ان يجيب برتوليه تعالت فجأة صرخة داوية ، وفى نفس اللحظة سمع الاثنان ضجة مروعة غامضة . وقد صدرت هذه الاصوات جميعا من جوف السفينة .

هرع القبطان والضابط الى سطح السفينة السفلى حيث توجد بطارية المدافع ، لكنهما عجزا عن النزول . فقد كان جنود المدفعية يندفعون صاعدين الى السطح العلوى كالمجانين .

– ٣ –

البلاء الاكبر

انفلت مدفع ضخم من مدافع البطارية فى سطح السفينة السفلى ، يزن عشرة آلاف من الارطال ، وانطلق يدوس ويحطم كالوحش الهائج .

وربما كانت هذه الكارثة هى أسوأ وابشع ما يصيب سفينة فى عرض البحر ، وتحت رحمة الرياح .

فان هذه الكتلة الجمادية الهائلة تدور على عجلاتها الأربع بسرعة الكرة ، وتندفع فى جميع الاتجاهات اندفاع الوحش الاعمى ، تقتل وتدوس وتحطم . ان لها ثقل الفيل ، وخفة الفار ، وحدة الفاس ، واندفاع الموج ، وسرعة البرق ، واطباق القبر . هى بلاء ذريع ينقض ويفتك ولا يبقى على شيء ولا يصده شيء .

كانت غلطة ضابط المدفعية . فقد اهمل تثبيت سلاسل المدفع فى مكانها بالمسامير الغليظة . ولما ارتطمت السفينة بموجة عالية انفلت المدفع من مكانه ، وانطلق حرا . وكان فى سرعة حركاته كقطرة من الماء تتحرك فوق سطح زجاجى .

وفى اللحظة التى أفلت فيها المدفع كان بعض جنود البطارية واقفين يباشرون بعض اعمالهم ، فلما تحرك المدفع الجهنمى بحركة السفينة الأولى دهم هؤلاء المساكين وسحق أربعة منهم بضربة واحدة ، ثم تراجع الى الخلف وانقض على رجل خامس شطره نصفين ، وعند ذلك ارتفعت تلك الصرخة الداوية التى سمعها القبطان

بالضابط . وسرعان ما اندفع الرجال كالمجانين الى السلم ، واخلى السطح السفلى فى ثوان معدودات ، وتملك المدفع ناصية الميدان وارجاء السفينة .

وقف القبطان برتوليه والضابط فيوفيل على راس السلم ينظران الى السطح السفلى مشدوهين حائرين ، وبعد قليل احسا برجل يزيحهما من الطريق بكتفه ويهبط السلم .

كان هذا الرجل هو ضيف السفينة .. (الفلاح) .. الذى كان دار حديثهما منذ قليل ، ولما وصل الى نهاية السلم وقف جامدا فى مكانه .

– ٤ –

صراع رهيب

فى هذا الوقت كان المدفع المخيف قد أتلف خمسة من مدافع البطارية بضرباته القوية ، واحدث ثغرتين فى جدار السفينة ، ولكن من حسن الحظ انهما فوق سطح المياه ومزقت عجلاته جثث الضحايا شر ممزق وبعثرت اشلاءهم فى كل مكان ، وتضرجت كافة نواحى السطح بدمائهم فغدا المشهد رهيبا والموقف هائلا يلقيان الرعب فى النفوس .

تمالك القبطان روعه واصدر الاوامر لرجاله ، فاخذوا يقذفون فوق السطح كل ما وجدوه من المراتب والوسائد والاكياس والحبال . وكذلك شحنة كبيرة من الأوراق المالية الزائفة التى اعدتها انجلترا خصيصا لترويجها فى فرنسا واعتبرتها وسيلة مشروعة من وسائل الحرب .

القيت هذه الاشياء جميعا فوق سطح السفينة السفلى بقصد ايقاف حركة المدفع وشل اندفاعه الجنونى ، لكنها القيت اعتباطا ، ولم يجرؤ احد على النزول الى السطح لتنظيم وضعها بشكل مثمر ، وسرعان ما فرقها المدفع الجبار ونثرها فى كل مكان .

كل هذا والمدفع مستمر فى عملية الاتلاف والتدمير . فاتسعت الثغرات التى احدثها ، وتصدعت السواريات ، واتلفت عشرة مدافع ، واخذ الماء يتسرب الى السفينة . ولو استمر الحال كذلك فان غرق السفينة امر محقق . فكيف الخلاص من هذا الهلاك ؟

في هذه اللحظة وثب الى المسرح رجل يحمل فى احدى يديه قضيبا من الحديد ، وفى اليد الأخرى حبلا ينتهى بانشوطة .. كان هذا الرجل هو مسبب الكارثة . اى ضابط المدفعية الذى ترتب على اهماله انفلات المدفع من مكانه . وقد أراد ان يتلافى هذه النكبة بعد ان أحدثها . ثم ابتدا الصراع الرهيب بين الانسان والجماد .

كتم الجميع انفاسهم جزعا . ولم يكن بينهم من سيطر على اعصابه واحتفظ بهدوئه سوى ذلك الكهل (الفلاح) الواقف عند أسفل السلم؛ معرضا مثل ضابط المدفعية للهلاك .

وقف الضابط مادا يديه بالقضيب وبالحبل ، منتظرا دنو المدفع من مكانه .. وسرعان ما انقض المدفع عليـه كالصاعقة . غير ان الضابط راغ منه بخفة القط ، وتكررت هذه الحركات . واذا كان الضابط لم يسحق تحت عجلات المدفع ، وكان فى كل مرة ينجو منه ، فان السفينة كانت تدفع ثمن هذه الحركات .

وفيما كان الضابط واقفا ينتظر عند نهاية السلم ، قرب الرجل الكهل الذى كان جامدا فى مكانه يراقب ما يجـرى ، اندفع المدفع بحركة فجائية واطبق على الضابط كالقضاء العاجل ، فصرخ البحارة ، اذ انحصر الضابط فى فراغ محدود .

لكن الكهل وثب وثبة عجيبة ، وتناولّ أحد اكياس الاوراق المالية الزائفة بسرعة البرق ، ودسه بين عجلات المدفع مستهدفا بهـذه الحركة للموت .

غير انها كانت حركة بارعة موفقة .. فقد تعثر المدفع فى دورانه . ان حصاة صغيرة قـد توقف اندفاع كتلة ضخمة من الخشب . وسرعان ما انتهز الضابط هذه الفرصة ، ودس القضيب بين قضبان احدى العجلات الخلفية . فوقف المدفع .. وترنح .. وأخـذ الضابط يحرك القضيب حركات قوية متوالية كما يفعل الانسان بآلة رافعة .. وما هى الا لحظـات حتى انقلب المدفع فى دوى شديد .. فألقى الضابط نفسه فوقه وطوق فوهته بالانشوطة .

تمت المعجزة .. وتغلبت النملة على الفيل .. وصفق البحارة حماسا واعجابا .. وسرعان ما هبطوا جميعا الى السطح ومعهم السلاسل والحبال وشدوا وثاق المدفع الجبار .

حيا ضابط المدفعية الرجل الكهل ، وقال له :

ــ سيدى .. انت انقذت حياتى .

لكن الكهل عاد الى سابق جموده ، ولم يجب .

- ٥ -

الثواب والعقاب

انتصر الانسان على الجماد . لكن المدفع احرز نصرا آخر . فقد حدث خمس ثغرات فى جوانب السفينة ؛ احداهما فى المقدمة . واتلفت ضربات المدفع الجبار عشرين مدفعا . وبقى من البطارية عشرة مدافع فقط صالحة للاستعمال . ثم تبين ان المدفع نفسه اصيب بالعطب . وهكذا كان الباقى تسعة مدافع سليمة .

كان سطح السفينة السفلى مختلطـا كأنه قفص فيـل هائج . واسرع البحارة لنزح المياه التى اخذت تتسرب الى داخل السفينة ؛ واعادة المدافع السليمة الى مكانها وازالة آثار هذه المعركة المروعة . ورغم ان السفينة كانت فى حاجة ماسة الى اطفاء انوارها حتى تختفى فى الظلام عن اعين الطرادات ، الا ان البحارة اضطروا الى وضع مصـابيح فى اماكن متعددة حتى يتسنى لهم اداء الأعمال المشار اليها .

وفى الوقت الذى دار الصراع على اشده للتغلب على المدفع ، اكفهر وجه السماء واشتدت الرياح وتلاطمت الامواج وتكاثف الضباب ، وحملت الريح السفينة بعيدا عن طريقهـا المرسوم ، وراحت تخبط فى الظلام .

ترك الراكب الكهل مكان الموقعة وصعد الى السطح العلوى ووقف مسندا ظهره الى السارية الرئيسية . ولم يلتفت الى الضـابط فيرفيل الذى جمع الجنود البحـارة فى صفين متقابلين حول السارية .. ثم ارتفع صفير حاد فشخصت الانظار الى ما يجرى .

تقدم القبطان الى الكهل ، يتبعه ضابط المدفعية شاحب الوجه مشوش الملابس ، وحياه التحية العسكرية قائلا :

ــ ايها القائد . جئت اليك بهذا الرجل .

وقف ضابط المدفعية وقفة عسكرية ، مرخيا عينيه . واستطرد القبطان :

ــ ايها القائد . الا ترى انه نظرا الى ما فعله هذا الرجل ، يجدر برؤسائه ان يفعلوا شيئا من ناحيتهم ؟

فقال الكهل : نعم .

فاجاب القبطان : تفضل اذن باصدار الأوامر .

ـ انت الذى تصدر الأوامر .. انت القبطان .
فاجاب برتوليه : لكنك القائد .
فنظر الكهل الى ضابط المدفعية وقال له : تعال .
تقدم الضابط خطوة . فالتفت الكهل الى القبطان ونزع من صدره وسام القديس لويس ، وشبكه فوق صدر الضابط .
هتف البحارة فى نفس واحد . ورفع الجنود بنادقهم فى تحية عسكرية . ثم اوما الكهل الى ضابط المدفعية المضطرب ، وقال :
ـ والآن ، فليعدم هذا الرجل بالرصاص .
خيم سكون كسكون الموت ، وعلت الوجوه حيرة بالغة . وفى هذا الجو رفع الكهل صوته وقال :
ـ وقع اهمال تعرضت السفينة بسببه للخطر . وربما كانت هالكة لا محالة فى هذا الوقت . ان ركوب البحـــر كمواجهة العدو . إن السفينة فى عرض البحر كالجيش يشتبك فى معركة . وقد تختفى العاصفة ، لكنها لا تغيب . ان البحر كمين يحمل الموت فى طياته . والموت هو العقوبة التى تجازى بها كل غلطة ترتكب عند مواجهة العدو . والغلطة الواحدة لا دواء لها . والواجب أن نكافىء الشجاع لشجاعته ، وأن نعاقب المهمل جزاء اهماله .
ثم التفت الى الجنود واستطرد : قوموا بواجبكم .
اعطى القبطان اشارة خاصة ، فنزل اثنان من البحارة الى داخل السفينة ، وعادا بعد قليل يحمـــلان كيسا ، ويتبعهما قسيس السفينة ، ثم تقدم جاويش واصدر امرا ، فانفصل من صفوف الجند اثنا عشر رجلا ، فأوقفهم صفين .
تقدم ضابط المدفعية دون ان ينبس بكلمة بين هذين الصفين . ثم انضم اليه القس حاملا صليبه فى يده .. واصدر الجاويش امره بالسير ، فتقدم هـــذا الموكب بخطوات بطيئة الى مقدمة السفينة ، يتبعه البحاران حاملين الكفن .
خيم على السفينة سكون رهيب .. ولعلع هدير العاصفة من بعيد .
اضاء شهاب بارق بعد دقائق . وتجاوب صوت الرصاص فى مقدمة السفينة .. وساد السكون .. ثم سمع صوت سقوط جسم فى البحر .
وقف الكهل مسندا ظهره الى سارية السفينة ، مشبكا ذراعيه فوق صدره ، يفكر فى سكون .

[illegible] برتوليه باصبعه الى الكهل وهمس فى اذن فيوفيل :
[illegible] نادين (فندبه) اهتدت الى القائد المنشود .

ـ ٦ ـ

بين نارين

تلبدت السحب وتعالت الأمواج، وانتشرت فوق السفينه طبقــات السحاب .. وسارع البحارة بالقاء المدافع المعطوبة والادوات التالفة فى البحر تخفيفا لحمل السفينة . ومع ان العاصفة التى هبت فى الأفق هدات ثورتها ، فان الأمواج لم تكف عن ثورانها . وفى هذا من الخطر ما فيه على سفينة مثخنة بالجراح .
تقدم الضــابط فيوفيل الى جاكوى قائد الدفة حيث وقف فى مكانه يمايل اهوال الطبيعة بهدوء ورباطة جاش وقال له مداعبا :
ـ ان العاصفة اخطاتنا . وذهبت ثورتها هباء .. سوف ننجو منها .. وما دامت الرياح كافية فهذا كل ما نطلب .
فاجاب جاكوى برزانة :
ـ حيثما تكون الرياح تثور الامواج .
كان موقف السفينة المعطوبة شديد الحرج امام الامواج . ولما راى فيوفيل خطورة اللهجة التى تكلم بها جاكوى عاد الى رزانته . وقال :
ـ واين نحن الآن ؟
فاجاب قائد الدفة :
ـ نحن بين يدى الله .
ابتعد فيوفيل .. وسرعان ما اجابت الطبيعة على سؤاله فقد انقشعت سحب الضباب .. وتبددت الغيوم التى كانت تحجب وجه الافق .. ولاح عن اليمين بياض الفجر البازغ ، وعن الشمال صفرة القمر الغارب .
فاما عن اليمين فقد ظهرت من ثنايا خيوط الفجر الاولى ثمانى سفن وقفت فى انتظام مروع على مسافات متباعدة . واما عن الشمال فقد ظهرت فى ضوء القمر ثلاث قمم صخرية شاهقة .
هذه السفن هى الأسطول الفرنسي .. واما القمم فهى صخور « مانكيير » .. وهكذا وقعت السفينة بين نارين . وعليها أن تختار

بين مواجهة العدو .. وبين التحطم على الصخور .

كان الموقف عسيرا .. فاذا واجهت السفينة العدو والتحمت معه فليس بها غير تسعة مدافع وقد ذهبت نخبة من خيرة رجالها .. كما ان المحنة التى اصابتها اشاعت العطب فى انحالها حتى عجزت الدقة عن توجيهها ، واخذت الامواج تقذف بها الى ناحية الصخور المهلكة .. واذا كانت العـــاصفة قد سكنت فان عناصر الطبيعة لا يؤمن جانبها .

– ٧ –

الافـــلات

وقف الـكهل فوق سطح السفينة يراقب الموقف فى جموده المالوف . وتقدم منه القبطان قائلا :

– سيدى . تمت الاستعدادات . ونحن على أبواب القبر . سنقع اما فى قبضة العدو ، او نتحطم على الصخور . وليست امامنا وسيلة ثالثة . ولكن بقى لنا منفذ واحد . هو الموت . خير لنا ان نقاتل ، من أن نفنى على الصخور . انى أفضل الموت بالرصاص ، على الموت غرقا . انى افضل النار على الماء . لكن اذا كان الموت هو مصيرنا ، فليس هو لك . ان الأمراء اختاروك ووضعوا آمالهم فى شخصك . ان مهمة سامية عظيمة منوطة بك . هى ادارة دفة الحرب فى ميادين (فنديه) . وفى هلاكك القضاء على الملكية . ولذلك لابد ان تعيش . ان واجبنا يحتم علينا البقـاء هنا . اما واجبك فيحتم عليك الذهاب . ولابد أن تغادر السفينة يا سيدى القائد . سامدك برجل وبقارب . وليس الوصول الى الساحل فى مرحلة طويلة بالأمر المستحيل . لم ينتشر النهار بعد . الأمواج عالية . والبحر مظلم . والافلات ميسور . ان الفــرار هو النصر والغلبة فى بعض الأحوال .

– احنى الـكهل راسه موافقا . فصاح الكونت برتوليه :

– ايها الجنود ! . ايها البحارة !

سكنت الحركات . وتطلعت الوجوه جميعـــا من كافة نواحى السـفينة الى القبطان ، فاستطرد :

– هــذا الرجل الواقف بيننا يمثل الملك . وقــد مهــد الينا

المحافظة على سلامته . فيجب أن ننقذه . هو لازم لعرش فرنسا ومسئولى قيادة الجيوش فى ميادين (فنديه) . هو قائد عظيم . من الواجب ان ينزل الى أرض فرنسا معنا . ولا مفر الآن من وصوله اليها بدوننا . ان انقاذ الراس انقاذ للـكل !

هتف البحارة جميعا فى نفس واحد :

– نعم ! نعم ! نعم !

استطرد القبطان :

– هو يوشك مثلنا ان يستهدف للخطـــر الشديد . ليس من الخير بلوغ الشاطىء . لـكى يمكن مواجهه البحر الغاضب الهائج ، لابد من قارب كبير . ولكى يتسنى الافلات من الطرادات ، لابد ان يكون القارب صغير الحجم . ومن الضرورى بلوغ الشاطىء فى نقطة مامونه ، يحسن ان تكون فى جوار « فوجير » . وهذه المهمة تتطلب بحـــارا قويا ، بارعا فى التجذيف ، ماهرا فى السباحة ، من ابناء هذا الشاطىء ؛ يعرف بحر المانش معرفة تامة . الظـلام تام : ومن الممكن انزال القــارب من هذه الـسفيـنة دون ان يراه الاعداء . هذا الى اننا سنثير فى الجو دخانا كثيفا يساعد على اخفاء القارب عن العيان . ان حجم القارب سيمكنه من عبور المناطق القليلة العمق . واذا كان يستحيل على هــذه السفينة ان تفلت من صخور (مانكيير) ، فان هذا ميسور للقارب . سيبتعد القارب بسرعة . ولن تراه عين العدو . وفى اثناء ذلك سنتفكه بمشاغلته ، ومداعبته . هل انتم موافقون ؟

هتف البحارة : نعم ! . نعم ! . نعم !

فاستطرد القبطان : من منكم يتطوع ؟

برز من صفوف البحارة واحد من خلال الظلام : وقال : انا .

– ٨ –

الغـــريم

ما كادت تمضى بضع دقـائق حتى انزل من الـسفينة (كليمور) قارب صغير متين البنيان يحمل الكهل والبحار المتطوع ، ومئونة مكونة من كيس من (البسكويت) وجزء من اللحم المقدد واناء من الماء . وراح البحار يجذف بقوة وسرعة مبتعدا عن السفينة متجها

الى صخور (مانكيير) وفقا لاوامر القبطان .
قطع القارب مسافة كبيرة ، وساعدته الرياح والأمواج ، وابتعد من السفينة .
وفجاة ، ارتفع فوق هدير الامواج صوت رهيب زاد فى رهبته قرع الطبول . هو صوت القبطان برتوليه ، الذى صاح فى رجاله :
ــ يا بحارة الملك ! . ارفعوا العلم الابيض فوق السارية ! لن نرى شروق الشمس الا مرة واحدة !
ثم اطلقت السفينة « كليمور » مدفعها الاول ، وهتف البحارة :
ــ يحيا الملك !
فجاوبهم من اقصى الأفق هتاف داو بهذه الكلمات :
ــ تحيا الجمهورية !
وانفجر على اثر هذا الهتاف دوى رهيب يصم الآذان ، وكأن السماء أرسلت وابلا من صواعقها ورعودها .
ابتدات المعركة . وانتشر فوق البحر ستار من دخان ونار . واكتسى وجه الموج بغطاء من الزبد المتلاطم .
وأرسلت السفينة (كليمور) قذائفها النارية على الاسطول . وصوب اليها الأسطول وهو منتظم فى نصف دائرة نارا حامية من كافة مدافعه ، فتوهج الافق بالنيران المضطرمة وكأنما انفجر فى وسط البحر بركان ثائر يرسل الحمم والقذائف .
جلس الرجلان فى القارب صامتين .. ودنا القارب من صخور « مانكيير » .
فى وسط هذه الصخور الشاهقة بوغاز قليل العمق يحميه من اليسار لسان صخرى مسطح ، ومن اليمين صخور ضخمة متناثرة . وعلى جانبى هذين الحاجزين تتكسر الامواج حتى اذا وصلت الى ماء البوغاز نفسه تلاشت وانعدم تاثيرها .
اتجه البحار بالقارب الى هذا البوغاز ، وراح يشق طريقه فيه بحذر ومهارة . وفى هذا الوقت حجبت الصخور شبح الصراع الرهيب الدائر بين الاسطول والسفينة (كليمور) . واخذت اصوات المدافع الداوية تخفت وتتلاشى ببعد المسافة . ولكن استمرار الطلقات دل على أن (كليمور) تكافح وتناضل حتى النفس الاخير .
وصل القارب الى الجانب الآخر من الصخور ، بعيدا عن ميدان القتال ، ومتناول المدافع والرصاص .

واخذ ضوء النهار ينتشر ، وانعكست طلائعه فوق رءوس الامواج .
نجا القارب من قبضة العدو . لكن بقيت مرحلة شاقة رهيبة . هو قارب ضئيل بغير شراع ولا سارية ولا بوصلة . أو هو ذرة [illegible] فى بحر متلاطم الأمواج ، وتحت رحمة العواصف والانواء .
فى هذه العزلة الموحشة ، وتحت رحمة الطبيعة الجبارة رفع البحار راسه ، ونظر الى الكهل مليا ، ثم قال :
ــ انا أخ الذى امرت باعدامه .

الفصل الثالث

هالالو

ـ ١ ـ

موقف رهيب

رفع الكهل راسه ببطء ، ونظر الى البحار .
كان البحار رجلا فى الاربعين من عمره ، اسمر الوجه ، نفاذ العينين ، قوى البنية ، يحمل فى حزامه خنجرا ومسدسين ومسبحه .
قال الكهل : من انت ؟
ـ قلت لك الآن من انا .
ـ وماذا تريد ؟
علق البحار المجدافين فى القارب .. وشبك ذراعيه فوق صدره ، واجاب : اريد ان اقتلك .
فقال الكهل : كما تحب .
رفع البحار صوته وقال : استعد .
ـ لأى شىء ؟
ـ للموت .
فقال الكهل : ما السبب ؟
ساد السكون ، وظهرت دلائل الحيرة على وجه البحار ازاء هذا السؤال ، ثم قال :
ـ أقرر لك انى انوى قتلك .
ـ وانا اسال عن السبب .
لمعت عينا البحار واجاب :
ـ لانك قتلت اخى .

فقال الكهل باتم هدوء :
ـ انى انقذت حياته اولا .
ـ هذا صحيح .. انقذته اولا .. ثم قتلته .
ـ لست انا قاتله .
ـ ومن اذن ؟
ـ اهماله وغلطته .
حدق البحار الى الكهل وهو فاغر الفم .. ثم عبس عبوسا ينذر بالشر والاجرام .
فقال الكهل : ما اسمك ؟
ـ هالالو .. لكن لا حاجة بك الى معرفة اسمى ما دمت هالك .
اشرقت الشمس فى هذا الوقت ، وسطع ضوؤها على وجه البحار فكشف عن وحشيته . وجعل الكهل يتفرس فى وجهه مليا .
تناول البحار احد المسدسين بيده اليمنى ؛ وامسك باليسرى مسبحته . نهض الكهل وبسط قامته ، وقال :
ـ هل تؤمن بالله ؟
واجاب البحار : كل الايمان .
ـ هل لك ام ؟
ـ نعم .
ثم استطرد البحار وهو يشهر مسدسه : انتهى الكلام .. انى امهلك دقيقة يا مولاى .
ـ لم تناديني بمولاك ؟
ـ من الجلى انك سيد .
ـ هل لك انت سيد ؟
ـ نعم .. وهو سيد عظيم .. هل يمكن ان يكون الانسان بغير سيد ؟
ـ واين سيدك ؟
ـ لا ادرى .. انه غادر هذا الاقليم .. هو يدعى الماركيز دى لانتناك ، فيكونت دى فونتناى ، امير (بريتانى) ، ملك الغابات السبع . انى لم اره فى حياتى ، لكن هذا لا يمنع انه سيدى ومولاى .
ـ وهل اذا رايته تطيعه ؟
ـ بلا ريب .. انى اكون جاحدا اذا لم اطعه ، انى أطيع الله ،

والملك ، ومولاى ، لـكن هـذا لا يتصل بموضوعنـا ، انك قتلت اخى ، فلابد من قتلك .

فاجاب الكهل : موافق ، انى قتلت اخاك ، وحسنا فعلت .

احكم البحار تصويب المسدس وقال :

ـ استعد .

فقال الكهل فى هدوء تام : لـكن .. ابن القـسيس ؟

حملق البحار فى وجهه وقال : القسيس ؟

ـ نعم .. القسيس ، انى امددت اخاك بقسيس ، فانت مدين لى بقسيس .

فقال البحار : ليس عندى قسيس ، وهل يوجد القسيس فى عرض البحر ؟

فقال الكهل وهو يشير الى دوى المعركة البعيدة .

ـ ان الذين يموتون هناك يستغفر لهم قسيس .

فغمغم البحار : صحيح ، عندهم قسيس السفينة .

فاستطرد الكهل : ستتعذب روحى ، هذه مسالة خطيره .

اطرق البحار براسه مفكرا ، بينما استطرد الكهل :

ـ واذا عذبت روحى ستعذب روحك . اسمع ، انى ارثى لك ، افعل ما تشاء ، اما انا فقد اديت واجبى ، اديته أولا بانقاذ حياة اخيك ، واديته ثانيا بانتزاع هذه الحياة منه ، وانى أؤدى الآن هذا الواجب اذ احاول انقاذ روحك من العذاب . فكر فى الامر ، هذا شانك . هل تسمع دوى المدافع فى هذه اللحظة ؟ .. هناك رجال يهلكون ، هناك بؤساء يفنون ، هنـــــاك ازواج لن يروا زوجاتهم ، وآباء لن يلتقوا بأبنائهم ، واخوان ـ مثلك ـ لن يشاهدوا اخوتهم . من هو المتسبب فى هـذه النكبة ؟ .. هو اخوك ، اى انت .

لو كان اخوك خادما امينا ، ولو قام بواجبه كما يقوم به كل رجل امين ، لما حدثت حادثة المدفع الذى أفلت من عقاله ، ولا تعرضت السفينة (كليمور) للعطب ، ولا انحرفت عن طريقها المرسوم ، ولا وقعت تحت رحمة الأسطول المعادى ، ولهبطنا جميعـــــا الى ارض فرنسا كالجنود البواسل ، فرحين ، مستبشرين ، شاهرين سيوفنا ، رافعين علمنا ، ولذهبنا لمساعدة فلاحى (فنديه) الشجعان لانقاذ فرنسا ، ولأرضينا الله .

هذا ما كنا نريد ان نفعل .. هذا ما كان يجب أن يفعل .. بل

عدا ما ندبت انا الوحيد الباقى : لفعله . لـكنك تجعل من نفسك اله لمقاومة هذه الغاية .

وهب اخوك نفسه للشيطان وكان آلته الاولى .. وهانت ذا تهب نفسك للشيطان وتكون آلته الثانية . ابتدا اخوك . وانت تتم ما بدا .

انك تقضى على من جعله الله ملاذ فرنسا الاخير .. ستحترق القرى والدور .. وتخرب البيوت .. وتدمع العيـون .. ويمتهن رجال الدين .. وتتعذب (بريتانى) .. وبيد من يحدث كل هذا ؟ بيدك وحدك .. افعل ما تريد . هذا شانك .. انى اعتمدت عليك لمساعدتى فى انقاذ رسالتى ، فاذا بك تحبطها .

صحيح .. انت على حق .. انى قتلت اخاك .. كان اخوك باسلا مقداما فكافاته .. وكان مذنبا مقصرا .. فعاقبته .. انه قصر فى اداء واجبه . اما انا فلم اقصر .. وما فعلته مرة افعله مرات .. اقسم بالله الذى يرانا انى ما كنت أتردد فى اعدام ابنى كما اعدمت اخاك ، فى ظرف مماثل .

انت الآن صاحب الحول والطول ، والأمر والنهى .. انى ارثى لك .. لقد كذبت على القبطان وخنت الامانة التى وضعها فى عنقك . انت مؤمن خائر الايمان .. انت وطنى بلا شرف .. انك تهب موتى للذين عهدوا اليك بحياتى .

نعم .. انى اعدمت اخاك .. لكن عليك أن تعلم انى كنت انفذ قضاء الله فى اخيك .. فهل تقاضى من اختاره الله لهذه المهمه ؟ .. هل تقاضى ظواهر الطبيعة التى يسخرها الله بامره ؟ يا لك من تعس ! . ستقف يوما بين يدى الله . فيحاسبك على ما جنت يداك .. فكر فيمـا تفعل .. اقتلنى واقذف بنفسك فى الجحيم .. ان هلاكنا كلينا فى يدك . وستكون وحدك المسئول أمام الله .. نحن وحدنا .. وجها لوجه .. فى هذا الخضم .. اجهز على ! اقتلنى ! .. انا كهل .. وانت شاب .. انا أعزل .. وانت مسلح .. اقتلنى !

وقف الكهل منتصب القامة يلقى هذه الكلمات فى صوت أعلى من هدير الموج .. اما البحار فقد امتقع وجهه ، وانحدر العرق غزيرا فوق جبينه ، واخذ يرتجف كورقة فى مهب الرياح .. وجعل يقبل مسبحته بين وقت وآخر .

وما كاد الكهل يتم كلامه حتى رمى البحار مسدسة وركع على ركبته ، وهتف :

– رحمـة يا مولاى . اغفر لى واصـفح عنى . انت تتـكلم كالقديسين . انى اذنبت . وقد اذنب اخى من قبل . لكنى ساحاول اصلاح جرمه . افعل بى ما تشاء . مر . وعلى السمع والطاعة .

فقال الكهل : عفوت عنك .

– ٢ –

بحار ماهر وفلاح ذكى

مضت ست وثلاثون ساعة قبل وصول القارب الى اليابسة . وقد ابدى هالالو من ضروب البراعة والحذق فى تسيير القارب مادل على تفوقه فى فنون الملاحة . ومن حسن الحظ ان الرياح سكنت والأمواج هدأت فى هذه المدة غير ان هالالو اضطر حتى لا يقع القارب فى ايدى العدو ان يقوم بجولة طويلة . وفى اثناء هذه المدة سمع الاسان السعيد (تيمور) تطلق قذيفتها الاخيرة ، ثم ساد السكون ، وتلاشت السفينة فى طوايا الفناء .

وقبيل غروب الشمس فى مساء اليوم التـالى وصل هالالو بالقارب الى شاطىء مهجور بسبب الرمال المتنقلة حوله مما يجعل اللاحة خطرة على السفن الكبيرة .

ومن حسن الحظ ان المد كان مرتفعا فى هذا الوقت . فجعل هالالو يجذف الى حد معين ، ثم اختبر الأرض الرملية ، ولما وجدها ثابتة انحدر من القارب وجذبه الى الارض . واقتدى به الكهل ووقف يفحص الافق .

اخذ هالالو يشرح للكهل طبيعة المكان وموقعه الجغرافى ، ومد الـكهل يده الى القارب وتناول جانبا من (البسكويت) ووضعه فى جيبه وامر هالالو ان يأخذ الباقى .

وضع هالالو ما بقى من اللحم و (البسكويت) فى الكيس وحمله على ظهره ، ثم قال : مولاى . هل اتقدمك او اتبعك ؟

– لا هذا ولا ذاك .

نظر هالالو الى الـكهل متحيرا ، فقال هذا :

– لابد ان نفترق يا هالالو .

ثم خرج الـكهل من احد جيوبه رقعة حريرية خضراء تتوسطها ريشة موشاه بالذهب . واستطرد :

– هل تعرف القراءة ؟

– لا .

– من حسن الحظ .. هل لك ذاكرة قويه ؟

– نعم .

– لا بأس . اصغ الى يا هالالو . عليك ان تسير الى اليمين . اما انا فالى الشمال .. سأذهب فى اتجاه « فوجير » . وستذهب فى اتجاه (بوزوج) . احتفظ بهذا الكيس الذى تحمله . فهو يكسبك مظهر الفلاحين .. اخف اسلحتك . واصنع لنفسك عصا من الاغصان . وسر فى ظـلال الأشجار . وتجنب الناس . وابتعـد عن المسالك المطروقة . والقناطر المشيدة على الانهار . ستضطر لاجتياز نهر كوسون » ، فكيف تفعل ؟

– سأسبح .. توجد منطقة سهلة بين « آنس » و « فيل » .

– حسنا .. انت حقا من ابناء هذا الاقليم .

– لـكن الليل على الابواب . فاين ينام مولاى ؟

– انى اعرف كيف أدبر نفسى .. وانت .. اين تنام ؟

– توجد اشجار مجوفة .. انى كنت فلاحا قبل أن اكون بحارا .

– تخلص من قبعتك البحرية ، والا فضحتك .. من اليـسير أن تجد قلنسوة .

– سأحصل عليها من اول صياد .

– حسنا .. اصغ الى . هل تعرف غابات هذا الاقليم ؟

– اعرفها كلها .

– هل لن تنسى شيئا مما اقوله لك ؟

– ولا كلمة .

– حسنا .. انتبه جيدا لما أقول .. فى نهاية الاخدود الكائن بين « سـان رين » وبين « بلدياتك » توجد شجرة كستناء ضخمة . قف عند هذه الشجرة . لن ترى أحدا حولك .

– لكنى اعرف ان هذا لا يمنع من وجود اناس مختبئين .

– ستنادى النداء الخاص . هل تعرفه ؟

نفخ هالالو وجنتيه وأخرج من فمه صوتا يشبه نعيب البومة ، فقال الكهل :

– بديع . هذا هو النداء بعينه .

بسط الكهل الرقعة الحريرية الخضراء فى يده واستطرد :

ـ هذه شارة القيادة الخاصة بى . من الضرورى الا يعرف احد اسمى فى الوقت الحالى . لكن هذه الشارة تكفى . ان الزنبقة طرزتها الملكة بيدها فى السجن .

ركع هالمالو على احدى ركبتيه . وادنى الرقعة من فمه وهو يرتجف . ثم توقف كانما روعته هذه القبلة ، وقال :

ـ هل يجوز لى ان اقبلها يا مولاى ؟

ـ نعم .

قبل هالمالو الزنبقة ، ثم نهض بامر الكهل ، ودس الرقعة فى صدره فاستطرد الكهل :

ـ اصغ الى جيدا . ستبلغ رسالتى بهذه الكلمات : « انهضوا .. ثوروا .. لا ترحموا » ستنادى النداء الخاص عند الشجرة المذكورة ، وهى فى نهاية غابة « سانت اوبان » . وتردد هذه الكلمات ثلاث مرات . وبعد المرة الثالثة سترى رجلا يبرز فجاة من الارض .

ـ نعم .. من تجويف تحت الاشجار .

ـ هذا الرجل هو بلانشنو المعروف باسم « قلب الملك » . عليك ان تريه الشارة ، فيفهم كل شىء .. ثم تذهب الى غابة « استليه » ، حيث تقابل رجلا كسيحا يدعى موسكيتون .. بلغه انى احبه ، وان عليه ان يثير جميع المقاطعات .. هل تعرف غابة « لاتورج » ؟

ـ وكيف لا اعرفها يا مولاى ؟ . انى نشات فيها . وبها حصن « لاتورج » الكبير الذى تملكه اسرة سيد ارضنا . وبهذا الحصن باب ضخم من الحديد يفصل شطر الحصن الجديد عن الشطر القديم ، وتعجز المدافع عن فتحه . وفى الشطر الجديد يوجد المجلد الضخم المحتوى على تاريخ وصور مذبحة « سان بارثولميو » ، يذهب الناس لرؤيته من كل مكان . ثم هناك الممر السرى تحت الارض . بل ربما كنت الوحيد الذى يعرف بوجود هذا الممر .

ـ اى ممر ارضى ؟ . لا افهم قصدك .

ـ انشىء هذا الممر فى العصور القديمة ، وقت ان كان الحصن محاصرا . وكان يمكن الموجودين فى داخل الحصن ان يهربوا من الممر الارضى الذى يؤدى الى الغابة .

ـ اعرف ان مثل هذه الممرات توجد فى بعض الحصون المعروفة .

... ممر كهذا فى حصن « لاتورج » .

... لا اعرف الممرات التى يتكلم عنها مولاى . لكنى اعرف ... « لاتورج » لانى ولدت فى تلك الجهة ، ولا يوجد من ... سواى . اذ كان الكلام عنه ممنوعا . لكن ابى كان ... وقد ارانى الممر نفسه . انى اعرف كيف ادخل واخرج ... اذا كنت فى الغابه ان اصل الى الحصن وبالعكس ... يرانى احد . انى اعرفه تماما يا سيدى .

... الكهل قليلا . ثم قال :

... مخدوع . لو كان يوجد مثل هذا الممر ، لعرفته .

... وانى بوجوده يا مولاى . هناك حجر يدور .

... معشر الفلاحين تصدقون بوجود الحجارة التى تدور ، ... وتشرب من الغدير فى ظلام الليل . هذه خرافات .

... لكنى ادرت الحجر بنفسى .

... سمعه غيرك يغنى . اسمع ايها الرفيق . ان « لاتورج » ... قوى يسهل الدفاع عنه . لكن من يعتمد على وجود ممر ... الارض يكون غبيا احمق .

ـ لكن يا مولاى .

هز الكهل كتفيه وقال :

ـ اننا نضيع الوقت . لنتكلم فيما يعنينا .

فاه الكهل بهذه الكلمات فى نبرات جعلت هالمالو يكف عن اسراره . ثم راح يسرد له اسماء الغابات والمواقع التى يذهب اليها . والافراد الذين يقابلهم ويبلغهم رسالته ؛ ثم اخرج من جيبه كيسا ناوله له واستطرد :

ـ ستحتاج الى مال . فى هذا الكيس مئة جنيه ذهبا هى كل ما عندى . انا لا احتاج الى مال . ومن الخير الا يوجد معى مال ... .

ان الشارة التى اعطيتك اياها ستهيىء لك استقبالا حسنا حيثما ذهبت . ولا تنس انك ذاهب فى اقليم اهله خليط من الفلاحين واهل الغابات . ومن اليسير ان تتنكر . ان الجمهوريين من الغباوة حيث يسهل عليك ان تمر من صفوفهم فى كل مكان اذا ارتديت سترة زرقاء وقبعة ذات شارة مثلثة الالوان . لا توجد بينهم فرق منظمة ، ولا زى رسمى للجنود . هم شيع واحزاب لا حصر لها . وكل فرد يرتدى الزى الذى يحلو له .

فاذا ذهبت الى جميع هذه الجهات . وقلت الكلمات التى لقنتها لك فستجمع الجيش الملكى وتضم صفوفه اينما كان .

ستقابل جميع القواد الباقين على قيد الحياة ، وتريهم شارة قيادتى . فيفهمون جميعا معناها والمراد منها . قل لهم بلسانى : « حان الوقت للجمع بين الحربين : الحرب المنظمة ، والحرب الوحشية . الاولى ذات ضجيج وعجيج . والثانية ذات محق وتدمير . ان خير سلاح وامضاه فى الحروب الاهلية هو الحرب الوحشية . ان نجاح الحرب يقدر بما تنتجه من الهلاك والدمار » .

هالالو . انت لا تفهم الكلمات . لكنك تفهم المعانى . انى وثقت بك حينما رأيتك تعالج القارب معالجة الرجل القدير . انت لم تدرس الملاحة . لكنك تصنع المعجزات فى البحر . ان الذى يعالج قاربا فى الشدائد جدير أن يدير دفة الثورة . وفى يقينى انك ستنفذ اوامرى على احسن الوجوه .

ستكلم جميع القواد وتفهمهم ما اريد بطريقتك الخاصة . قل لهم انى افضل حرب الغابات على حرب السهول . لا احب ان اجعل مئة الف فلاح فى صفوف منظمة فيتعرضوا لمدافع الزرق تفنيهم عن آخرهم . فى نيتى فى اقل من شهر ان اجمع نصف مليون من الفلاحين يكمنون فى الغابات . ويفاجئون الزرق من حيث لا يشعرون . ان اكثر اعتمادى على حروب الغابات لا على المعارك المنظمة . قل لهم ان الانجليز معنا . واننا سنحصر الجمهوريين بين نارين . ان اوروبا تساعدنا . والملوك يشدون ازرنا . فلنسحق الثورة سحقا . ستقول لهم كل هذا . فهل فهمت ؟

— نعم يا مولاى . ساقول لهم ان يسلطوا على العدو الجديد والنار والا يرحموا احدا . وسوف اذهب فى كل مكان .

— عليك ان تلزم الحذر . فالموت فى هذا الاقليم كامن فى كل مكان .

— لا تخف يا مولاى . ساكون كلى عيونا مفتوحة وحواسا مرعفة .

— انت رجل باسل .

— واذا سئلت عن اسم مولاى ؟

— يجب الا يعرف اسمى فى الوقت الحالى . اذا سئلت عن اسمى فقل انك لا تعرفه ، وهى الحقيقة .

— وان ارى مولاى فيما بعد ؟

— ستراني حيثما اكون .

— وكيف اعرف مكانك ؟

— لان الدنيا كلها ستعرف اين اكون . سيتحدث الناس عنى ... مضى اسبوع . ساضرب الامثال الخالده . وستعرف اننى ... ع حديث الناس .

— فهمت .

— لا تنس شيئا .

— كن مطمئنا .

— اذهب الآن . لتحرسك عناية الله .

— سافعل كل ما امرتنى به . ساطوف . سأتكلم . سأطيع .

— ... واذا نجحت ؟

— سامنحك وسام القديس لويس .

— كما منحت اخى . واذا اخفقت ؟ ستامر باعدامى ؟

— مثل اخيك .

— قبلت يا مولاى .

اطرق الكهل براسه واستغرق فى التفكير . ولما رفع عينيه ... ان هالالو شبحا غامضا يختفى عند الافق .

غربت الشمس ، وساد سكون تام الا من طيور البحر التى كانت تحلق صارخة فوق الامواج .

كان الاقليم قفرا موحشا .. فالبحر يمتد من ناحية لا اثر فيه لشراع او سفينة . والحقول تنبسط من الناحية الاخرى خلوا من اى مخلوق .

الفصل الرابع

تلمارش

– ١ –

عند قمة التل

انتظر الكهل حتى اختفى هالالو عن نظره . ثم سار فى جهة مضادة حتى وصل الى تل ارتقاه وجلس عند قمته .

راى وهو جالس فى مكانه على امتداد النظر طائفة من البلدان والقرى وشاهد ابراج النواقيس تمتد شاهقة طوال الشاطىء حتى تتخذ منها السفن والقوارب معالم تهتدى بها فى سيرها .

استقر نظر الكهل بعد فحص غير قليل عند مجموعة من الاشجار والجدران والسقوف كانت فى منتصف المسافة بين السهل والغابة .. فعرف فيها على الفور المزرعة التى ينشدها ، وهز راسه راضيا وجعل يلتمس بنظره الطريق الذى يسلكه اليها .

استرعى نظره بعد قليل جسم غامض يتحرك بانتظام فوق سقف البيت الرئيسى فى المزرعة .. ولما لم يستطع أن يميزه بسبب الظلام جلس فى مكانه ساكنا واستسلم للراحة والهدوء .

وفيما هو كذلك سمع فجاة اصوات نساء واطفال يلغطون .. وقد صدرت هذه الأصوات من أسفل التل .. ومع انه لم يستطع أن يرى أصحابها بسبب الأشجار التى حجبتهم عن نظره ، فقد تسنى له ان يسمع الحديث الدائر بجلاء .. وكان المتكلمون يتجهون ببطء الى السهل والغابة فسمع امراة تقول :

– لابد أن نسرع يا فليشار .. هل هذا هو الطريق ؟

فأجاب صوت أمراة اخرى :

– لا .. هو هناك .

– ما اسم المزرعه التى سننزل فيها ؟

– اسمها « زهرة الشاطىء » .

– وهل نصل اليها بعد وقت طويل ؟

– لا ، أقل من ربع ساعة .

– لابد من الاسراع حتى ندرك العشاء .

– نعم .. قد تأخرنا .

– يجب ان نجـــرى .. لكن اطفالك متعبون .. ونحن امراتان وحدنا . ولا نمكن أن نحمل ثلاثة اطفال . ثم انك يا فليشار تحملين الا طفلة .. هذه عادة قبيحة .. أود ان تتركينى ادربها على المشى .. لا بأس .. كما تشائين .. سنتناول الحساء باردا .

– ان الحذاء الذى أعطيته متين .. وأكاد اظن انه صنع لاجلى .

– هذا احسن من المشى حافية القدمين .

– اسرع يا رينيه جان .

– هو سبب تأخيرنا فى الواقع .. وكان يصر على مخاطبة بنات الفلاحين اللاتى قابلهن .. هو يستعجل دور الرجولة !

– صحيح .. هو الآن فى السنة الخامسة من عمره .

– قل لى يارينيه جان .. لماذا خاطبت البنت التى قابلناها فى القريه ؟

فأجاب صوت غلام : انى كنت اعرفها .

فسألته المراة : هل كنت تعرفها حقا ؟

– نعم .. عرفتها منذ صباح اليوم .. لعبت معى بعض الالعاب .

فهتفت المراة : انت رجل غريب ! .. لم تمض علينا فى هذه الجهه سوى ثلاثة ايام ! .. هـــذا المخلوق يا فليشار فى طول ذراعك ، ومع ذلك اصطاد حبيبته !

خفتت الأصـوات .. ثم تلاشت ولم يعد الكهل يسمع شيئا .

– ٢ –

الاعـــــلان

جلس الكهل جامدا فى مكانه مستسلما لأفكاره ، كان ضوء النهار لا يزال منتشرا فوق قمة التل ، غير انه كان ضئيلا فى السهل ، اما الغابة فكانت فى ظلام دامس ، وبزغ القمر فى الافق الشرقى وانتشرت

في صفحة السماء نجوم باهتة .

كان الكهل يشعر براحة واطمئنان . وخيل اليه ان كل الاخطار التي كانت تهدده قد زالت بعد ان نجا من البحـر ووصل الى اليابسة .

لم يكن احد يعرف اسمه . وهو الآن وحده . وقد افلت من العدو دون أن يترك خلفه اقل اثر . ولا يرتاب احد في وجوده . واحس في هذه اللحظة براحة وسكينة وميل الى النوم .

وفجأة نهضّ على قدميه . واسترعى نظـره شيء يتحرك عنـد الافق . ولما امعن النظر رأى جميع النواقيس المتناثرة حوله تتحرك في ابراجها حركات مستمرة منتظمة .

استخلص من هذا ان النواقيس تقرع في كافه البلدان والقرى التي بحوله . ولم تصل اصواتها الى اذنه لبعد المسافة وهبوب الرياح في جهة مضادة . فعجب من هذه الظاهرة . ولم يفهم لهـا تعليلا الا ان نكون نذيرا بمطاردة انسان معين .

احس هذا الكهل الحديدي الاعصاب بقشعريرة تسري في جسده .

هل يمكن ان يكون هذا الانسان هو ؟ . هل علموا حقا بافلاته وبوجوده في هذا الاقليم ؟

لم يلبث ان نفى من ذهنه هذه الهواجس . فقد وصل الى اليابسة منـذ قليل .. وكل الدلائل تشير الى غرق السفينة « كليمور » بركابها ، كما انه لم يكن بين رجالها من يعرف اسمه سوى القبطان برتوليه والضابط فيوفيل .

وفيما هو كذلك سمع حفيف اوراق بقربه . فالتفت حوله . واذا هو يرى اعلانا كبير الحجم ملصقا الى عمود فوق قمة التل .

كان الاعلان قد الصق فـوق العمود منذ زمن قصير بدليل آثار البلل التي شاهدها به . على ان الرياح اخذت تعبث بالاعلان وكادت تنزعه من مكانه .

لم ير الكهل هذا الاعلان عند صعوده الى التل ، اذ انه ارتقـاه من الجانب المقابل لوجه العمود الذي الصق الاعلان فوقه . واسرع الكهل الى الاعلان ووضع يده عند رأسه ، وطالع في الضوء المنتشر ما يلي :

« الجمهورية الفرنسية وحدة لا تتجزأ » .

« نحن حاكم مقاطعة المارن ، ممثل الشعب لدى جيش شربورج الساحلي ، نعلن الآتي : ان ماركيز دي لانتناك سابقا ، فيكونت

[illegible] اي . الأمير المزعوم في مقاطعه « بريتاني » [illegible] سرا [illegible] جرانفيل ، هو متمرد .. وكل من ياتي به حيا او ميتا [illegible] مكافأة قدرها ستة آلاف من الفرنكات الذهبية .. وسيعهد [illegible]ـال الى فرقة من جيش الساحل في شربورج بالبحث عنه [illegible] .. وعلى جميع البلدان والقـرى ان تقدم كل مساعدة [illegible] .

[illegible] تحريرا في دار الحكومة في جرانفيل في الثاني من شهر يونيو [illegible] ١٧٩٣ .

حاكم مقاطعة المارن

« امضاء »

[illegible] تحت هذا التوقيع كتابة اخرى بحروف صغيرة لم يستطع [illegible] ان يقرأها لضآلة النور .

[illegible] الكهل ان البقاء فوق القمه بعد ذلك غير مأمون العاقبة فهبط [illegible] وراح يسلك الطريق الذي اختاره للوصول الى المزرعة .

[illegible] السهل مقفرا في هذا الوقت خلوا من المارة .. ولما وصل [illegible] الى بقعة تحجبها الأشجار ، خلع عباءته وسترته الجلدية ، ثم [illegible] رداء السترة جاعلا وجهها الخشن ذا الشعر ظاهرا .. وارتدى [illegible] واستأنف سيره .

وصل الكهل الى نقطة تتفرع عندها الطريق .. وشاهد صليبا من الحجر الصق فوق قاعدته اعلان كالذي شاهده منذ دقائق .. وفيما [illegible] يتجه اليه ناداه صوت قائلا :

— الى اين تذهب ؟

التفت الكهل حوله .. فوقع نظره على رجل عند حافة الاشجار طويل القامة ، كبير السن ، ابيض الشعر ، رث الثياب ، يكاد يكون صورة مطابقة له .

كان الرجل يتكيء فوق عصـا ، وردد سؤاله قائلا :

— اني اسألك الى اين تذهب ؟

فقال الكهل في هدوء وانفة :

— اين انا أولا ؟

فأجاب الرجـل : انت في اقطـاعية « نايس » . انا متـول الاقطاعية . وانت ربها .

— انا ؟

— نعم .. انت .. مولاي الماركيز دي لانتناك .

المتسول

قال الماركيز دى لانتناك بهدوء :
— ليكن .. سلمنى .
فاستطرد الرجل :
— كلانا هنا فى موطنه .. انت فى الحصن . وانا فى الغابات .
فقال الماركيز : قم بمهمتك .. افضحنى .
فقال الرجل : وكنت ذاهبا الى مزرعة (زهرة الشاطىء) . اليس كذلك ؟
— نعم .
— لا تذهب اليها .
— وما السبب ؟
— لان الزرق نزلوا بها .
— متى ؟
— منذ ثلاثة ايام .
— وهل قاوم اهل المزرعة واصحاب القرى المجاورة ؟
— لا .. بل فتحوا أبوابهم على سعتها .
فقال الماركيز : آه !
اشار الرجل الى سقف بيت المزرعة الرئيسى الذى كان يرى على مسافة وقال :
— هل ترى السقف ايها الماركيز ؟
— نعم .
— هل ترى ماذا يعلوه ؟
— جسم يطفو فى الهواء . هو راية .
فقال الرجل : نعم . هى الراية المثلثة الالوان .
كان هذا الجسم هو الذى استرعى نظر الماركيز اثناء وجوده فوق قمة التل .
قال الماركيز : الا تدق النواقيس ؟
— نعم .
— ولاى سبب ؟

— بسببك ولا ريب .
— لكنى لا اسمع رنينها ؟
— ان الرياح تحمل الصوت الى الجهة المضادة . هل رايت الاعلان الخاص بك ؟
— نعم .
— هم يطاردونك . وفى المزرعة نصف فرقة من الجنود .
— هل هم من الجمهوريين ؟
— من الباريسيين .
فقال الماركيز : لا باس . لنسر الى الامام .
خطا الماركيز خطوة فى اتجاه المزرعة ، فامسك الرجل ذراعه ، وقال : لا تذهب اليها .
— والى أين تريد ان اذهب ؟
— ستذهب معى الى بيتى .
تفرس الماركيز فى وجه المتسول ، فقال هذا :
— اصغ الى يا مولاى الماركيز . بيتى غير مريح ، لكنه مأمون . دون اول درجة من الكهف . أرضه من اعشاب البحر ، وسقفه من الخشب والاغصان . تعال معى . فى المزرعة حتفك واعدامك . وفى بيتى تنال قسطا من الراحة والنوم . لابد انك تشعر بالتعب . وفى صباح الغد سيجلو الزرق ويرحلون ، وعند ذلك تذهب اينما شئت .
تفرس الماركيز فى الرجل ، وساله :
— مع من أنت ؟ . هل انت جمهورى ؟ . هل انت ملكى ؟
— انا متسول .
— لا ملكى ولا جمهورى ؟
— لا اظن .
— هل انت مع الملك او ضده ؟
— وقتى لا يسمح لى بالتفكير فى هذه المسائل ؟
ما رأيك فيما يحدث هذه الايام ؟
— ليس عندى مورد اعيش منه .
— لكنك جئت لمساعدتى ؟
— لانى رأيتك مقصيا عن دائرة القانون . ما هو القانون ؟ لست افهم كيف يكون الانسان فى حدوده ، وكيف يتجاوز نطاقه . هل انا فى حدود القانون ؟ هل انا متجاوزه ؟ . لا ادرى بتاتا . هل الموت جوعا مما يدخل فى دائرة القانون ؟

ـ كم لبثت معرضا للموت جوعا ؟
ـ طول حياتي .
ـ ثم تنقذني ؟
ـ نعم .
ـ لم ؟
ـ لأني قلت لنفسي : هذا مخلوق اشد بؤسا مني .. اني املك ان اعيش وأن اتنفس .. أما هو فلا .
ـ هذا صحيح .. وانت تنقذني ؟
ـ بلا ريب .. نحن اخوان في البلاء يا مولاي ، انا اطلب الخبز وانت تطلب الحياة ، نحن متسولان !
ـ لكنك تعلم ان هناك ثمنا لرأسي ؟
ـ نعم .
ـ وكيف علمت ؟
ـ قرأت الاعلان .
ـ تعرف القراءة ؟
ـ اعرف القراءة .. والكتابة ايضا .. هل هناك ما يوجب ان اكون حيوانا ؟
ـ ما دمت تعرف القراءة ، وما دمت رأيت الاعلان ، فانت تعرف ان بوسعك أن تربح ستة آلاف من الفرنكات بكشف شخصيتي ؟
ـ اعرف هذا .
ـ وليس هذا المبلغ بالأوراق المالية .
ـ نعم .. اعرف أنه بالعملة الذهبية .
ـ ستة آلاف من الفرنكات الذهبيه .. هل تعرف انها ثروة ؟
ـ نعم .
ـ وان من يعتقلني يغتني مدى الحياة ؟
ـ لا باس .. وماذا بعد ؟
ـ مدى الحياة ؟
ـ هذا ما فكرت فيه بالضبط .. حينما رأيتك قلت لنفسك : هذا رجل يستطيع الانسان بتسليمه ان يربح ستة آلاف من الفرنكات الذهبية ويغتني مدى الحياة ، فلنسرع اذن باخفائه ..

تبع الماركيز المتسول .. فاندسا في غابة ووصلا الى كهف المتسول. كان تجويفا محفورا في قلب شجرة بلوط ضخمة ، تغطيه فروعها . كان كهفا مظلما ، منخفضا ، محجوبا عن العيون ، يسمع النبن .

قال المتسول : اني رأيت اني قد استضيف بعض الناس ، مثل هذه المساكن الارضية مألوفة في اقليم (بريتاني) . وكان ... مزودا ببعض الأوعيه . وأوراق الاشجار الجافه . ورماد ، حطب جاف .

زحف الاثنان الى هذا المسكن الذي تجعل منه جذور الشجرة ... عجيبة ، وجلسا فوق كومة من الاعشاب البحرية الجافة التي ... منه فراشا . ومع ان الظلام يسود المكان ، الا ان العين لا تلبث ... ، كما ان خيوطا ضئيلة من ضياء القمر كانت تنعكس على ... الكهف . وكان في أحد أركانه اناء ماء ورغيف من الخبز الأسمر الجاف وقليل من الكستناء .

قال المتسول : لنتعش .

تقاسما الكستناء . وقدم الماركيز جانبا من (البسكويت) الذي كان يحمله . واكلا الرغيف الأسمر ، وشربا من الوعاء واحدا بعد الآخر .

قال الماركيز : اذن كل شيء سواء عندك . ولا تهتم بما يحدث . لا يحدث ؟

ـ نعم . انتم الساده . وتلك شئونكم ومشاغلكم .
ـ لكن مهما يكن ، فان الحوادث الجارية لابد ان تهمك .
ـ هي تحدث في محيط لا يعنيني . ثم هناك مسائل اهم منها ... . فالشمس تشرق وتغرب . والقمر يستدير ويتضاءل . هذه هي المسائل التي تعنيني .

ثم رشف من الاناء وقال :

ـ ماء عذب سائغ . كيف وجدت طعم الماء يا مولاى ؟

فقال الماركيز : ما اسمك ؟

ـ اسمي تلمارش . لكني أدعى المتسول . وهم يلقبونني ايضا العجوز . وقد اطلقوا على هذا الاسم منذ اربعين سنة .
ـ اربعين سنة ! لكنك كنت صغيرا في ذلك العهد .
ـ لم أكن صغيرا في حياتي . وبعكس ذلك يا مولاى الماركيز تبقى انت صغيرا دائما . ان لك ساقي فتى في العشرين . وبوسعك أن ترتقي الهضاب والتلال . اما انا فلا اكاد اقوى على المشي . اني اتعب بعد مسيرة نصف ميل . ومع ذلك فنحن متساويان في العمر . لكن الاغنياء يمتازون عنا .. فهم يأكلون كل يوم .. الاكل يحفظ القوة .

سكت المتسول قليلا ثم استطرد :

ـ الفقر ! . الغنى ! . هذا موضوع مخيف ! . هو اصل البلاء والحوارث .. وهذا هو رايى على الاقل . الفقراء يلتمسون الغنى . والاغنياء لا يحبـــون أن يفتقروا . أحسب ان هذا هو تلخيص الموضوع . على انى لا ابحث هذه المسائل ولا ادس انفى فيها .
خلد المتسول الى الصمت مرة ثانية ، ثم استطرد :
ـ انا رجل اعرف قليـلا فى الطب ، اعرف خصائص الاعشاب وادرس طبائع النباتات ، والفلاحون يروننى مشغول الفكر ، شارد الذهن ، فيحسبوننى ساحرا ، انى احلم ، فيظنوننى مفكرا .
فقال الماركيز : هل انت من هذه النواحى ؟
ـ لم افارقها فى حياتى .
ـ هل تعرفنى ؟
ـ بالطبع .. رايتك لآخر مرة حينما مررت من هنا منذ سنتين ، وذهبت الى انجلترا .. ومنذ قليل رايت رجلا على قمة التل .. رجلا مفرط الطول ، ان طوال القامة نادرون . (بريتانى) موطن القصار . امعنت نظرى .. وكنت قرات الاعلان ، فقلت لنفسى : « هو بعينه » ولما هبطت من التل عرفتك فى ضوء القمر .
ـ ومع ذلك لا اعرفك .
ـ انك رايتنى . لـكنك لم تنعم النظر الى . اما انا فرايتك من قبل ، وانعمت فيك النظــر . المحسن والمتسول لا ينظـران بعين واحدة .
ـ هل قابلتك من قبل ؟
ـ مرارا .. انا متسـول نالنى فيض احسـانك . كنت اقف فى الطريق المؤدى الى حصنك ، وكنت تجود على .. لكن المحسن لا يلقى الا نظـــرة عارضة . أما المحسن اليه فينظر ويفحص . المتسول مرادف للجاسوس . وانى وان كنت محزون النفس فى اغلب الاوقات ، الا انى لا أحاول ان اكون جاسوسا شريرا .. اعتدت ان امد يدى . وكنت ترى هذه اليد الممدودة فقط ، فتلقى فيها ما احتاج اليه فى الصباح حتى اموت فى المساء .. طالما بقيت أربعـا وعشرين ساعة بغير طعام . فالسنتيم هو الحياة احيانا . .أنا مدين لك بحياتى .. وانى أرد الدين .
ـ هذا صحيح . فانت تنقذ حياتى .
ـ نعم . انى انقذك يا مولاى .
ثم استطرد تلمارش فى نبرات خطيرة : بشرط واحد .

ـ وهو ؟
ـ الا يكون مجيئك الى هنا لعمل الشر .
فقال الماركيز : جئت الى هنا لعمل الخير .
فقال المتسول : لننم .
تمدد الاثنان جنبا الى جنب فوق الاعشاب البحريه . واستغرق المتســول فى النوم على الفور . اما الماركيز فانه راح يقدح زناد فكره رغم اشتداد تعبه .. واخذ ينظر مليا الى المتسول .
على انه استلقى اخيرا على جنبه . وانتهز هــذه الفرصة ووضـع اذنه على الارض .. فـسمع دويا غريبا فى أعماق الأرض . هو صوت النواقيـس التى استمرت تقرع حتى الآن .. فان الصوت يسرى فى الاعماق كما هو معلوم .
واخيرا استسـلم الماركيز لسلطان النوم .

ـ ٤ ـ

جوفان

استيقظ الماركيز منتعشا . فراى المتسول واقفا خارج الكهف مستندا الى عصاه وقد سطعت اشعة الشمس على وجهه .
قال تلمارش : مولاى ، دق ناقوس ، تاييس ، مؤذنا بالسـاعة الرابعة . انى سمعت الدقات وأحصيتها . ومعنى هذا ان اتجاه الرياح تغير . ولم اسمع صوتا آخر . ومعنى هذا ان رنين النواقيـس انتهى .. كل شيء هادىء حول المزرعة . اما ان الزرق نيام ، او انهم رحلوا . انتهت مرحلة الخطـر . خير لنا ان نفترق . هــذا وقت سيرى .
وأشار الى نقطة عند الافق واستطرد : ساذهب فى هذا الاتجاه .
ثم اشار الى الجهة المقابلة واردف : اذهب انت فى ذلك الاتجاه .
حيا المتسول الماركيز ، واشار الى بقايا العشاء قائلا :
ـ خذ الكستناء اذا كنت جائعا .
وما هى الا لحظات حتى اختفى بين الأشجار .
نهض الماركيز وسار فى الاتجاه الذى أشار اليه تلمارش . ولمـا وصل الى مفترق الطرق حيث يوجد الصليب الحجرى رأى الاعلان ما يزال ملصقا فوق قاعدته . وتذكر فى هذه اللحظة ان هناك كتابة

مى ذيل الاعلان لم يستطع تلاوتها فى الليلة الماضية لصغر حروفها وضآلة النور . فاتجه الى الصليب ورأى فى اسفل الاعلان كتابة بحروف صغيرة هذا نصها :

« سوف نعدم الماركيز السابق دى لانتناك بالرصاص حالما تتبين شخصيته » .

« قائد جيش الساحل »

« جوفان »

وقف الماركيز جامدا فى مكانه ، وراح يحدق فى الكتابة ويقدح زناد فكره ويقول :

ــ جوفان ! .. جوفان !

ابتعد الماركيز .. ثم ادار راسه والقى نظرة ثانية على الصليب .. وعاد أدراجه وقرأ الاعلان مرة ثانية .. ولما استأنف سيره من جديد كان يردد اسم « جوفان » فى صوت خافت .

سار الماركيز فى طريق منخفض يمتد حول أرض مرتفعة .. وفيما هو كذلك رن فى اذنيه دوى هائل مروع .. هو مزيج من الصراخ ودق الطبول وطلقات البنادق .. صدر من الحقول والغابات المجاورة . ثم لمح الماركيز سحبا من الدخان والسنة من النيران تتصاعد من ناحية المزرعة .

حدث كل هذا فجاة .. واستحال الهدوء السائد الى ضجيج يصم الآذان . ولم يتمالك الماركيز ان ارتقى المرتفع ووقف عند قمته يستطلع ما يجرى ، وسمع الصراخ يدوى فى ارجائها .

راح يسائل نفسه .. ترى هل اعتدى الزرق على المزرعة واعملوا فيها التقتيل والتحريق كشأنهم كلما ارادوا ان يعاقبوا قرية من القرى . انهم كثيرا ما عمدوا الى انزال هذا العقاب الصارم بالقرى التى تتهاون فى تمهيد الطرق لجيوشهم فى ظلمات الغابات ومغاورها .

تطلع الماركيز الى الغابات الكثيفة المحيطة بالمزرعة .. وفيما هو فى مكانه يضرب اخماسا فى اسداس ويتردد بين الوقوف والنزول ، تلاشى دوى المزرعة فجاة ، وسمع الأصوات تنتقل من المزرعة الى داخل الغابة . كانت مزيجا من دق الطبول وصيحات الفوز والنصر .. وجعلت هذه الاصوات تنتقل بسرعة فى الغابة ، فأيقن ان أصحابها يطاردون شخصا او اشخاصا .

وفجأة ، سمع اسما يتردد صداه على الف لسان واخترقت اذنيه هذه الصيحات الداوية :

ــ لا نتناك ! .. لانتناك ... الماركيز دى لانتناك !

اذن هم يطاردونه هو دون سواه !

فظائع الحرب الاهلية

برزت من بين اشجار الغابه فجأة مئات البنادق والحراب والسيوف وبينها علم مثلث الالوان . وظهرت سحن وحشيه لم يكد يراها الماركيز وهى تردد اسمه ، وانما كانت هى تراه بجلاء فى موقفه فوق قمه المرتفع . وكان صراخها يصم الآذان .

رفع الماركيز قبعته . واخرج من جيبه رقعة بيضاء . وتناول عودا من النباتات الشائكه النامية حوله . فشبك الرقعه فى القبعة ووضعها ثانية على رأسه .. ثم رفع راسه وصاح بأعلا صوته :

ــ انا الرجل الذى تبحثون عنه ! .. انا الماركيز دى لانتناك ، كونت دى فونتناى . امير الغابات . قائد عام جيوش الملك ! .. صوبوا ! .. اطلقوا !

ثم مزق سترته بكلتا يديه وعرض صدره مجردا للعيان .

والقى نظرة الى اسفل ؛ متوقعا ان يرى الأسلحة المصوبه اليه . فالفى نفسه محوطا برجال راكعين على اقدامهم .. وارتفع صوت يدوى بهذا الهتاف :

ــ يحيا لانتناك ! .. يحيا القائد !

وفى نفس الوقت راى قبعات ترتفع فى الهواء ؛ وسيوفا تقذف فى فرح وابتهاج ؛ وعصيا تعلوها قلانس من الصوف تهتز فى كل مكان .

كان الجيش الذى احاط به هو احد جيوش (فنديه) وقد ركع افراده على الأرض تحية له واجلالا .

اخترق صفوف الراكعين شاب نبيل الملامح يرتدى سترة من الفراء وحول وسطه حزام حريرى ابيض يتدلى منه سيف ذو مقبض ذهبى . وما كاد يصل الى الماركيز حتى القى قبعته وفك حزامه وركع فوق احدى ركبتيه على الارض وقدم الحزام والسيف الى الماركيز قائلا :

ــ نحن نبحث عنك حقا ، وقد وجدناك . تقبل سيف القيادة ؛ هؤلاء هم رجالك ، كنت قائدهم . اما الآن فانى اتنحى واندمج فى الصفوف ، تقبل خضوعنا يا مولاى ، ايها القائد . انا فى انتظار اوامرك .

اشار الشاب اشارة خاصة ، فخرج من الغابة طائفة من الرجال

يحملون علما مثلث الالوان هو الذى رآه الماركيز من قبل ، وتقدم الرجال الى حيث وقف الماركيز ووضعوا العلم تحت قدميه ، وقال الشاب الذى قدم اليه الحزام والسيف :

— أيها القائد .. هذا هو العلم الذى انتزعناه من الوحوش الذين استولوا على مزرعة (زهرة الشاطىء) .. مولاى ، اسمى جافار ، وانا من رجال الماركيز دى لاروارى .

قال الماركيز : احسنتم .

ثم وضع الحزام حول وسطه بهدوء ورزانة ، وانتزع السيف ولوح به فوق رأسه ، وهتف بأعلا صوته :

— انهضوا ! .. يحيا الملك !

نهض الجميع .. ودوى فى الغابة صوت كقصف الرعد :

— يحيا الملك ! .. يحيا الماركيز ! يحيا لاروارى .

التفت الماركيز الى جافار وسأله :

— كم عددكم ؟

— سبعة آلاف .

وفيما هما ينحدران من المرتفع ، استطرد جافار :

— مولاى ، الموضوع غاية فى البســاطة .. ويمكن تلخيصه فى كلمات ، كنا ننتظر شرارة واحدة لاضرام نار حماستنا ، ان المكافأة التى اعلنتها الجمهورية حينما كشفت عن وجودك اثارت كل الاقليم واستنهضته من اجل الملك ، وفوق ذلك فقد وردنا اخطار من عمدة جرانفيل الذى هو من رجالنــا ، وفى الليلة الماضية قرعوا جميع الأجراس .

— لمن ؟

— لك .

فقال الماركيز : آه !

واستطرد جافار : وها نحن اولاء .

— وعددكم سبعة آلاف ؟

— اليوم .. وسنكون ضعف هذا العدد غدا . كنا واثقين من وجودك فى احد جوانب هذه الغابة ، واخذنا فى البحث عنك .

— وهاجمتم الزرق فى مزرعة (زهرة الشاطىء) ؟

— ان اتجاه الرياح حال دون سماعهم دقات النواقيس .. ولم يرتابوا فى شىء .. وقد استقبلهم أصحاب المزرعة الاغبياء استقبالا حسنا .. وفى صباح هذا اليوم احطنا بالمزرعة .. وكان الزرق نياما

... ا عليهم .. عندى جواد .. هل سيتفضل بقبوله ايها السيد ... ؟

...

... احد الفلاحين جوادا أبيض ودنا من الماركيز .. فامتطاه بغير ... التى قدمها اليه جافار .. فهتف الفلاحون اعجابا .

... جافار تحية عسكرية وقال :

... نجعل مقر القيادة يا مولاى ؟

... فى غابة (فوجير) أولا .

... فى احدى غاباتك السبع يا مولاى الماركيز .. انا فى انتظار ... يها القائد .

... لا .. ليكن ملتقانا فى غابة فوجير .. اطلب الى الرجال ان ... وا .. وان يذهبوا الى هناك .

... جافار قليلا ثم عاد قائلا :

— أعطيت الاوامر .

— ألم تخبرنى بأن أصحاب المزرعة احسنوا استقبال الزرق ؟

— نعم يا سيدى القائد .

— هل أحرقتم البيت الرئيسى فيها ؟

— نعم .

— أحرقوها كلها .

— ان الزرق حاولوا الدفاع عن انفسهم . لكنهم كانوا مئة وخمسين ونحن سبعة الاف .

— من أين هم ؟

— من باريس . وكان لهم راية شعارها (الفرقة الحمراء) .

— هم حيوانات متوحشة .

— ماذا نفعل بالجرحى ؟

— اجهزوا عليهم .

— وماذا نفعل بالاسرى ؟

— اعدموهم .

— هم حوالى ثمانين رجلا .

— اعدموهم جميعا .

— بينهم امرأتان .

— اعدموهما كذلك .

— وثلاثة اطفال .

- احملوهم . سنقرر فيما بعد ماذا نصنع بهم .
همز الماركيز جواده وابتعد به .

- ٦ -

الضحايا

بينما كانت هذه الحوادث تقع في جوار (تانيس) : كان المتسول يهيم على وجهه في اتجاه (كرولون) .
اخذ يتنقل بين الحقول والغدران مستسلما لاحلامه لا يفكر في شيء وكان يسمع بين حين وآخر صدى الصراع الدائر فيقف قليلا ، ثم يستأنف سيره غارقا في سحر الطبيعة مستمعا الى تغريد الأطيار. وكان اذا تعب يستريح ، واذا جاع يأكل من الثمار الجافة التى يصادفها ، واذا عطش ينهل من الجداول الجارية .
ولما اقبل المساء وصل الى بقعة مكشوفة يشرف الناظر منها على الافق الغربي .. فاسترعى نظره عن بعد عمود من الدخان راى من كثافته واختلاطه بالسنة حمراء ما اقلقه واثار وساوسه .
كان الدخان صادرا من ناحية مزرعة (زهرة الشاطيء) . فاسرع تلمارش في سيره متجها الى مصدر الدخان . ومع انه كان متعبا الا ان رغبته في الوقوف على الحقيقة جعلته يتغلب على تعبه .
ووصل الى قمة تل تقع المزرعة والقرية في نهايته . فلم يجد امامه مزرعة ولا قرية بل رأى كوما من الخرائب يحترق . هو ما بقي من (زهرة الشاطيء) .
وقف تلمارش في مكانه جامدا . لم يسمع صوتا بشريا . بل كانت السنة النار تأتي على ما بقي من القرية في سكون . وكان الدخان ينكشف احيانا فيسفر عن سقوف هاوية تحتها غرف تتوهج فيها بقايا الأثاث المحترق .
اصغى تلمارش لعله يسمع صراخا أو استنجادا . فلم يسمع شيئا .. اين ذهب اصحاب القرية الذين كانوا يقيمون في ارجائها ويكدون ؟ . هل افلتوا جميعا ونجوا بأنفسهم ؟
هبط تلمارش التل : وتقدم الى المزرعة وكأنه شبح يتنقل في ارجاء مقبرة . وما كاد يصل الى بيت المزرعة الرئيسي ويطل على الفناء حتى راى اكداسا من الرجال . فارقتهم معالم الحياة .

وراى حولهم بركة عظيمة ينبعث منها دخان ... في الدماء .
تقدم تلمارش الى الموتى وراح يلقي عليهم نظرة فاحصة في ضوء ... ولهب الحريق .
كانوا جنودا يرتدون كسيا زرقاء ؛ وقد جردت اقدامهم من ... ونزعت اسلحتهم . وراى حولهم قبعات متناثرة تحمل ... متلئة الالوان .
عرف فيهم فرقة الجمهوريين الذين نزلوا في المزرعة في الليلة الماضية وعسكروا فيها .. ورآهم مكدسين بنظام فادرك انهم اعدموا ... بالرصاص .
وفيما هو يتأهب للانصراف وقع نظره على جدار منخفض في ... . وراى اربع اقدام بارزة من احد اركانه .
كانت الاقدام صغيرة تحمل احذية ... فدنا تلمارش منها . وراى امرأتين راقدتين جنبا الى جنب خلف الجدار .. وقد اعدمتا بالرصاص مثل الجنود .
انحنى تلمارش فوق المرأتين .. فوجد احداهما ترتدي شبه سترة رسمية .. فعرف فيها (زميلة) الفرقة .. وراى في رأسها آثار اربع رصاصات .
فحص تلمارش المرأة الثانية .. عرف فيها احدى الفلاحات ... وكانت متقلصة الملامح مفتوحة الفم مغمضة العينين .. ولم يجد جرحا برأسها .
كانت ملابسها التي ابلاها طول السير مشوشة فوق جسدها بتأثير سقطتها .. وقد كشفت عن صدرها ... فأزاح تلمارش هذه الملابس قليلا وراى احد كتفيها مثقوبا برصاصة هشمت الأضلاع .
ثم القى نظرة على صدرها المتقلص وغمغم :
- أم ترضع .
لمسها تلمارش بيده .. فلم يجدها باردة .. ولم ير بها سوى الجرح والتهشيم فوق كتفها .
وضع يده على قلبها ، فأحس بخفق ضعيف .. لم تكن ميتة .
وسرعان ما هتف تلمارش بصوت مروع :
- الا يوجد احد هنا ؟
اجابه صوت شديد الخفوت لا يكاد تسمع : هل انت تلمارش ؟ ..
وفي نفس اللحظة برز وجه من بين الخرائب ؛ وتلاه راس من احدى

الفتحات .. واذا هما فلاحان كانا مختبئين . وقد بقيا وحدهما من الكارثة . ولما سمعا صوت المتسول اطمأنا وخرجا من المكان الذى اعتصما به .

تقدما الى المتسول الكهل وهما ينتفضان بشدة .. فاشار بيده الى المراة الممددة تحت قدميه وقد عجز عن الكلام .

قال احد الفلاحين : هل بها رمق من الحياة ؟

اومأ تلمارش برأسه ايجابا ، بينما قال الفلاح الثانى :

— هل المراة الثانية على قيد الحياة ؟

هز تلمارش راسه سلبا .. وقال الفلاح الاول :

— الجميع اموات .. انى رايت كل شيء .. كنت فى مخبئى .. كم أشكر الله لأنى لم اكن ذا عائلة .. ان بيتى احترق .. وقد قتلوا كل انسان .. كان لهذه المراة ثلاثة اطفال صغار . هتف الاطفال مذعورين : « امى ! » .. وصرخت الأم مجنونة « اولادى ! » .. وقد ذهب القتلة بعد ان اتموا المجزرة .. ذهبوا راضين مسرورين .. حملوا معهم الأطفال بعد ان اطلقوا الرصاص على أمهم . انى رايت كل شيء بعينى راسى . لكنها لم تمت .. الم تقل ذلك ؟ . هل يمكن انقاذها ؟ هل تحب أن نساعدك فى حملها الى كهفك ؟

اومأ تلمارش برأسه ايجابا .

صنعوا نقالة من اغصان الأشجار ووضعوا المراة فوقها .. وحمل الفلاحان النقالة وساروا الى كهف المتسول فى الغابة التى كانت قريبة ، بينما امسك تلمارش بذراع المراة وراح يتحسس نبضها .

وفيما هم يسيرون راح الفلاحان يتبادلان الكلام فى يأس وجنون :

— قتلوا الجميع ! .. واحرقوا كل شيء ! .. هذا فظيع ! .. هذا مروع !

— رباه ! . هل تسير الامور على هذه الوتيرة منذ الآن ؟

— ان ذلك الرجل الطويل هو الذى امر بهذه الفظائع .

— نعم . هو الذى تولى القيادة .

— لم أنظر وقت اطلاق الرصاص .. هل كان موجودا ؟

— لا .. ذهب . لكن لا فرق .. فقد ارتكبت هذه الفظائع بامره .

— اذن فهو مرتكب كل شيء .

— انه قال لهم : اقتلوا .. احرقوا .. لا ترحموا .

— هو ماركيز .. هو الماركيز لانتناك .

رفع تلمارش عينيه الى السماء حينما سمع هذه الكلمات وغمغم :

— لو كنت اعرف !

الفصل الخامس

سيموردان

...د يتبادر الى الأذهان ان باريس الثائره نعمت بالرخاء والطمانينة ...ى أول عهدها بالجمهورية .. والواقع ان السنوات الاولى من ...ثورة كانت كابوسا مروعا تقلت وطاته على جميع النفوس بلا استثناء .. وما وافى عام ١٧٩٤ وهو العام الرابع من تاريخ الثورة حتى ...ع رد فعل ملحوظ فى نفسية الجماهير .. وبدا التعطش الى القتل ...فك الدماء يميل الى الدعة والاستمتاع بالحياة والتنفس فى جو ...ال من الضغط والارهاب .

على ان عام ١٧٩٣ امتاز بظاهرة اخرى .. ففيه اشهرت اوروبا الحرب على فرنسا . واشهرت فرنسا الحرب على باريس .. ولما كانت الثورة هى انتصار فرنسا على اوروبا ، وباريس على فرنسا ، فقد كان لهذا العام خطورته فى تاريخ الثورة .. وادرك الباريسيون ...ـده الحقيقة فاخذوا يستميتون فى الدفاع عن كيان ثورتهم التى صنعوها . كانت جيوش المتطوعين من اهل باريس تتدفق الى ميادين القتال ، وكان كل شارع يكون فرقة باسرها ، ولكل فرقة شعارها الخاص .

وكان لخطباء الجماهير فى ذلك العهد نفوذهم الكبير وتاثيرهم القوى فى استنهاض النفوس واضرام نار الحماسة فى الصدور ، ومنهم من كان مخلصا فى نزعته لا ينشد سوى خير الجمهورية الفتية الناشئة ؛ ومنهم من كان مغرضا يرمى الى مطامع خاصة ونزوات ذاتية .

كان سيموردان من الفريق الأول . وقد ظفر من الجماهير بالحب والتقدير والاحترام .

نشا شماسا فى احدى القرى ؛ اتخذت منه احدى الأسر النبيلة مربيا لولدها . ثم آل اليه ميراث يسير فنال حريته ، واستقل بنفسه .

كان سيموردان عالما مثقفا ، وتشيع للحرية حتى اصبحت عقيدته المتاصلة وامتزجت بدمه ، ولما نشبت الثورة انضم اليها وكان من

اركانها القويه والسنتها الناطقة . واكتسب فى نفوس الجماهير منزلة كبيرة لرجاحة عقله واخلاصه ، وصرامته الشديدة فى الدفاع عن الجمهورية ، حتى كان يخشاه أساطينها ويحسبون حسابه ، وينزلون على رايه .

كان فى الوقت الذى وقعت فيه حوادث هذه الرواية فى الخمسين من عمره ، وملامحه تدل على خلقه ونفسيته . فهو اصلع الراس عريض الجبهة ، ثاقب النظر ، مطبق الشفتين ، تلوح على وجهه دلائل الشمم . .

قلنا ان احدى الاسر النبيلة اتخذت من سيموردان فى شبابه مربيا لولدها .. كانت هذه الأسرة من اعرق العائلات فى الاقاليم ، لها طفل يتيم مات ابواه ولم يبق له سوى جدة كفيفة وعم ذى مركز عسكرى كبير فى البلاط الفرنسى كان يقتضيه الغياب الدائم عن مقر الأسرة وحصنها التاريخى القديم ... فلما عهد بالطفل الصغير الغض الى يدى سيموردان المربى ، صاغ منه رجلا بث فى روحه المتفتحة افكاره وعقائده فى الحياة ومثله العليا . وبعبارة موجزة افرغ فى نفس هذا النبيل روح الرجل الشعبى .

كان سيموردان لهذا الطفل بمثابة الأب ، واحبه حبا ملك عليه وجدانه .. بل ان هذه الرابطة الروحية التى تصل سيموردان بتلميذه كانت اوثق واعمق من صلات الابوة .

وحينما كان الابن فى دور الطفولة انتابه مرض قاتل .. فعكف سيموردان على تمريضه وواصل الليل بالنهار للسهر عليه حتى نجا من الموت .. وهكذا كان الطفل مدينا لسيموردان بحياته الجسدية والعقلية .

ثم جاء دور الفراق بعد ان اكتمل نمو الابن جسدا وعقلا واصبح شابا يافعا .. فانتقل الشاب النبيل الى صفوف الجندية التى كان فيها ضابطا بالوراثة . وانزوى سيموردان فى عالمه الكهنوتى ، ولم يعد يرى تلميذه .

ولما جاءت الثورة واصبح سيموردان من اعلامها البارزة لم تنسه مشاغلها المتعددة ذكرى تلميذه الذى تربع فى قلبه واحبه من دون الحياة والناس جميعا .

لكن هل يمكن لمثل سيموردان الجمهورى المتصلب ان يقف بمعزل عن هذا الحب وان يعمل غير متأثر به والا يستجيب لسلطانه ؟
هذا ما سوف نراه فى الفصول القادمة .

الفصل السادس

الزعماء الثلاثة

كان يوجد بشارع دى باون فى باريس حانة لها غرفة خلفية ، ...ارت بالاجتماعات السرية الخاصة التى كان يعقدها فيها رجال ذوى النفوذ الكبير ، حيث يتداولون بحرية فى معزل عن اعين الجماهير التى كانت تلازمهم فى كل وقت وكل مكان .

وحوالى الساعة الثامنة من مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر ...يو عام ١٧٩٣ . اجتمع بالغرفة الخلفية فى الحانة المذكورة ثلاثة رجال جلسوا متباعدين حول طاولة مربعة . كل امام جانب . وتركوا الجانب الرابع خاليا .

كان الاول روبسبير .. والثانى دانتون .. والثالث مارا .. وهم جبابرة الثورة الفرنسية .. وزعماؤها الدمويون .

جلس الثلاثه وحدهم فى الغرفه . وكان امام دانتون زجاجه من النبيذ وكاس .. وامام مارا قدح من القهوة .. وامام روبسبير ...لفه من الاوراق ، ومحبرة وختم ، وفى منتصف الطاولة خريطة تمثل فرنسا .

اما خارج الباب فقد وقف تابع مارا واعطيت اليه الاوامر الا يسمح بدخول احد الى الغرفة الا اذا كان من رجال (لجنة الامن العام) ، او من (مجلس الامة) .

ثم تليت أوراق امام روبسبير ، وطالت المناقشة بين الزعماء الثلاثة فى غير جدوى ، واحتدم الجدل ، وعلت صوات الغضب والحدة .

واخيرا وضع روبسبير يده على الاوراق التى امامه واستطرد :

— انى تلوت التقارير الواردة من حاكم مقاطعة المارن ، والبيانات المقدمة من الجاسوس جيلامبر ، اصغ الى يا دانتون ، الحرب الخارجية ليست شيئا ، والحرب الأهلية هى كل شىء ، وملخص ... قراءته ان « فنديه » التى كانت حتى اليوم موزعة بين قواد

متعددين قد انضمت تحت لواء قائد واحد : هو الرجل الذى نزل الى الساحل الفرنسى فى الثانى من شهر يونيو الحالى ، وقد عرفت من هذه الأوراق من هو وما هى شخصيته .

ان حروب الغابات تتشعب ويتسع نطاقها ... وفى نفس الوقت تتخذ العدة فى انجلترا لغزو الساحل الفرنسى .. هو تحالف بين أهل « فنديه » وبين الانجليز . وحاليا يتم استعداد الفلاحين وتتوحد صفوفهم سينزل الانجليز الى البر .. انظر الى الخطة التى سيتبعونها فوق هذه الخريطة .. سيسير الجيشان المتحالفان من أقاليم « فنديه » الى مقاطعة « بريتانى » ، ومن هذه الى « نورماندى » ، حيث الطريق مفتوح الى باريس ....

وقد احتدم الجدل بين الزعماء الثلاثة فلم يلتفتوا الى شخص دلف الى الغرفة من الباب الكائن فى اقصاها ابان احتدام المناقشة .

. وأخيرا قال مارا : هذا أنت أيها المواطن سيموردان ؟

كان القادم هو سيموردان حقا .

— الاتحاد ! . الاتحاد أيها المواطنون ! . الناس ينتظرون الوحدة .

كان لدخول سيموردان تأثير الماء البارد ينصب فوق الرءوس .. على انه اذا لم يخف دخائل النفوس ، فقد سكن الظواهر .

تقدم سيموردان الى الطاولة .. كان الثلاثة يعرفونه . فقد طالما شاهدوه فى جلسات « مجلس الأمة » حيث كان موضع التحية والاجلال من الجماهير .

قال دانتون :

— جئت فى الوقت المناسب أيها المواطن سيموردان . لنشرح له الموقف .. انا امثل حزب « الجبليين » وروبسبير يمثل « لجنة الأمن العام » . ومارا يمثل « الكومين » . وسيموردان يحكم بيننا .

فقال سيموردان ببساطة ورزانة : قبلت . ما هو موضوع الخلاف ؟

فأجاب روبسبير : هو « فنديه » .

فقال سيموردان : « فنديه » ! .. هنا الخطر الأكبر .. اذا استهدفت الثورة للهلاك ، فسيكون هلاكها عن طريق (فنديه) .. ان « فنديه » وحدها أخطر من المانيا عشرات المرات .. ولكى تعيش فرنسا ، يجب القضاء على « فنديه » واخماد ثورتها .

اكسبت هذه الكلمات القلائل سيموردان ولاء روبسبير .. ثم استطرد :

— ماذا يحدث الآن فى « فنديه » ؟

فأجاب روبسبير : ان « فنديه » وجدت [illegible] .. وأصبحت [illegible] خطرا مروعا .

— من هو زعيمها أيها المواطن روبسبير ؟

— الماركيز السابق دى لانتناك .. الذى يعد أميرا فى تلك المقاطعة .

أبدى سيموردان حركة خاصة ، وقال :

— انى اعرفه .. كنت مربيا فى بيته .. وكان من ابطال القصور قبل ان يصبح جنديا .

فقال روبسبير : هو رجل مخيف . هو يحرق القرى .. ويقضى على الجرحى .. ويذبح الاسرى .. ويقتل النساء .

— النساء !

— نعم .. انه قتل فيمن قتل أما لثلاثة اطفال .. ولا يعرف احد ماذا صار اليه أمر الاطفال الثلاثة .. هو قائد حقيقى .. يفهم معنى الحروب .

— ومتى وصل الى « فنديه » ؟

— منذ ثلاثة اسابيع .

— لابد من اعتباره متمردا .

— تمت هذه الخطوة .

— ويجب وضع ثمن لراسه .

— تم هذا .

— وتمنح قيمتها ذهبا .

— تم هذا .

— ويجب أن يعدم بالمقصلة .

— سيتم هذا .

— ومن يتولى هذه المهمة ؟

— انت أيها المواطن سيموردان .

— انا ؟

— نعم .. ستعين مندوبا مفوضا من قبل « لجنة الأمن العام » تزود بسلطة مطلقة .

فقال سيموردان : قبلت .

كان روبسبير بارعا فى سرعة اختيار الرجال ، شأن السياسى المحنك . ولم يلبث ان أخرج من حقيبة أوراقه رقعة من الورق

الابيض مطبوعا على راسها هذا العنوان بحروف كبيرة : « الجمهورية الفرنسية وحدة لا تتجزأ . لجنة الامن العام »

استطرد سيموردان : نعم ... قلت .. لا يفل الحديد الا الحديد .. لانتناك رجل صارم شديد الشراسة .. سأكون مثله .. ساشهر عليه حرب الموت . سأخلص الجمهورية منه باذن الله .

فقال روبسبير : احسنت ايها المواطن سيموردان .. ستكون مفوضا بالسلطة اللازمة لدى شاب في نصف سنك . فعليك ان ترشده ولكن في حزم وروية . هو يبدو ذا مواهب عسكرية ممتازة . وقد اجمعت كافة التقارير على ذلك . وفي ظرف خمسة عشر يوما استطاع ان يصد الماركيز دي لانتناك المحنك وان يمنع تقدمه . بل هو يدفعه امامه ، بل سوف يقذفه الى البحر . ان لانتناك له دهاء القائد الخبير وجراة الشباب . وخطته قائمة على اثارة نصف مليون من الفلاحين : وانزال الانجليز الى البر . لكن القائد الشاب يقاومه ويلزمه التقهقر دون حاجة الى مساعدة من القواد المجاورين . ومن هنا ثار الحسد ضده واختلفت الآراء في شانه . فالقائد ليشيل يريد اعدامه . وحاكم المارن يريد تنصيبه قائدا عاما .

فقال سيموردان : يبدو ان هذا الشاب يمتاز بمواهب عظيمة .

فقال مارا مقاطعا : لكن له نقطة ضعف بارزة .

فقال سيموردان : وما هي ؟

فاجاب مارا : الرحمة والطيبة . هو صارم في ميدان القتال . ضعيف بعد المعركة . هو يعفو . ويرحم . ويحمي الراهبات . وينقذ زوجات النبلاء وبناتهم . ويفرج عن الأسرى والقسس .

فغمغم سيموردان : هذا ضعف خطير .

فقال مارا : بل جريمة .

وقال روبسبير : غالبا .

فقال مارا : بل دائما .

فقال سيموردان : نعم .. دائما اذا كان الانسان يناضل اعداء الوطن .

فالتفت اليه مارا وقال له : وماذا تفعل بزعيم من زعماء الجمهورية اذا افرج عن زعيم من زعماء الملكية ؟

— اني اعمل برأي القائد ليشيل . اني أعدمه بالرصاص .

فقال مارا : او بالمقصلة .

فقال سيموردان : قد يترك له ان يختار .

فقال مارا : واذا تخاذل قائد جمهوري ، فهل تقطع راسه ايها المواطن سيموردان ؟

— في ظرف اربع وعشرين ساعة .

فقال مارا : حسنا .. اني اقر راي روبسبير . يجب ان يوفد المواطن سيموردان مندوبا مفوضا من قبل « لجنة الأمن العام » الى قائد جيش الساحل .. ما اسم هذا القائد ؟

قال روبسبير وهو ينظر في أوراقه :

— هذا هو اسمه ايها المواطن سيموردان . ان القائد الذي ستفوض لديه بسلطة كاملة هو فيكونت سابق . واسمه جوفان .

امتقع وجه سيموردان وهتف : جوفان !

لمح مارا هذا الامتقاع الفجائي .. وردد سيموردان كلامه :

— الفيكونت جوفان !

فقال روبسبير : نعم .

وقال مارا وهو يتفرس في وجه القس : حسنا ؟

ساد سكون قصير .. قطعه مارا قائلا :

— ايها المواطن سيموردان . هل تقبل مهمة المندوب المفوض لدى القائد جوفان بالشروط التي قررتها ؟

فاجاب سيموردان وقد اشتد امتقاع لونه : نعم اقبلها .

تناول روبسبير القلم وغمسه في المحبرة وحرر بضعة اسطر فوق الرقعة التي يعلوها شعار « لجنة الأمن العام » ووقعها باسمه .. ثم اعطى القلم والرقعة الى دانتون الذي اضاف اليها توقيعه .. واخيرا وقع مارا بدوره دون أن تفارق عيناه وجه سيموردان المتقلص .

تناول روبسبير الرقعة وحرر التاريخ واعطاها الى سيموردان ، طالع فيها ما يلي :

« يمنح المواطن سيموردان ومندوب « لجنة الأمن العام » سلطة مطلقة وتفويضا تاما لدى المواطن جوفان قائد جيش الساحل » .

« روبسبير »

« دانتون »

« مارا »

وكتب تحت هذه التوقيعات تاريخ « ٢٨ يونيو سنة ١٧٩٣ » .

كان مارا يراقب سيموردان وهو يطالع هذا التفويض ، وقال :

— يلزم تعزيز هذا الأمر بمرسوم من « مجلس الأمة » او بتفويض

معتمد من « لجنة الامن العام » كاملة .. لابد من خطوة اخرى مكملة في هذا الشأن .

فقال روبسبير : اين تقيم أيها المواطن سيموردان .

ـ في ميدان « الشهداء » .

فقال دانتون : انت جارى اذن .

فاستطرد روبسبير : لن نضيع دقيقة واحدة ، سيسلم لك غدا تفويض رسمى كامل معتمد من كافة أعضاء « لجنة الأمن العام » . وسيكون بمثابة تعزيز لسلطتك لدى حاكم مقاطعة المارن فيليبو وسواه .. نحن نعرف مواهبك ونقدر كفاياتك .. سيكون في مقدورك ان تخلق من جوفان قائدا عاما او ترسله الى المقصلة .. وسيرسل لك التفويض غدا في الساعة الثالثة مساء .. متى تسافر ؟

، فاجاب سيموردان : في الساعة الرابعة .

الفصل السابع

في ظلام الغابات

كانت مقاطعة (بريتاني) في ذلك العهد تضم سبع غابات مرهوبة الاسم ، يملكها نبيل يعرف باسم (أمير الغابات السبع) ، هو الفيكونت دى فونتناى ، وكان له في هذه الاقاليم مقام الامراء .. ومن اشهر هذه الغابات. غابة فوجير المجاورة لحصن الفيكونت المذكور .. وهى ممتدة بين بلدتى دول وافرانش .

في ظلام هذه الغابات وجد التمرد على الثورة الفرنسية مرعى خصيبا .. وكان اهلها من اشد الثائرين على الجمهورية الفرنسية والمناضلين ضدها ، وهم الذين أبلوا أكبر البلاء في حروب « فنديه » .

وكان أهل هذه المقاطعة ينقسمون الى ثلاث طوائف ، فمنهم الفلاحون الذين يعيشون على ثمار حقولهم ، ومنهم أهل الغابات الذين يقتنصون الحيوانات ويأكلون لحومها ويصنعون ارديتهم من جلودها . ومنهم الصيادون الذين ينتشرون على المناطق الساحلية .

كانوا جميعا يشتركون في صفة واحدة ، هى العيشة الفطرية التى تقدس الارض والمالك ، ولا يتجاوز تفكيرهم مطالب الحياة الدنيا .

ولما كانت أرضهم هدفا لهجوم المغيرين والفاتحين من اقدم العصور فقد كانوا يلجأون الى ظلام الغابات ، وانشأوا في ارضها كهوفا ومخابىء تمتد تحت الأرض كالسراديب ، تحجب مداخلها الاحجار وأغصان الاشجار ، واليها كانوا يلجأون كلما داهمهم خطر او اغار عليهم مهاجم . وهكذا تعرضوا في كافة ادوار حياتهم للاعتداء وما جلبه من الخوف الدائم والقلق المتصل . ولما جاءت الثورة الفرنسية واكتسب ظاهرها طابع العنف والتخريب وسفك الدماء ،

ثارت مخاوف هؤلاء الفلاحين وعدوها من قبيل الغزو الذى استهدف له اسلافهم ، فرفعوا في وجهها راية التمرد والعصيان ، وقاوموها بكل عنف واستماتة .

كان الـسرداب الواحد يكفى ستة اشخاص . وهى جميعا تمتد تحت الأرض فى طول الغابة وعرضها . وكانت الغابة الواحدة تضم جيشا قوامه سبعة أو ثمانية آلاف مقـاتل . لا تراهم العين . ولا يشعر بوجودهم احد . وباشارة خاصة كانوا يبرزون فجاة من جحورهم . فكانهم جيش من النمل انتشر من خلال الشقوق .

والى جانب هذه الـسراديب كانت توجد أكواخ منخفضة السقوف تحجبها الاغصان الكثيفة المتشابكة ، يأوى اليها النساء والأطفال ، ويقيم فيها الرجال وقت الـسلم ، أما وقت الحرب فكانوا يلجاون الى الـسراديب .

ومع أن هؤلاء المقاتلين كانوا يحتجبون تحت الأرض اياما واسابيع فانهم كانوا دائمى الاتصال والترابط ، وكانت الأنباء تتوارد عليهم بسرعة وانتظام عجيبين .

كان لهم رسـل يجوبون الغابات وينتقلون بخفة الطير من قرية الى قرية ومن غابة الى غابة ، تعلوهم بلادة ظاهرة ، لكنهم يحملون عصيا مجوفة فيها الرسائل والانباء المراد نقلها واذاعتها .

وفى احد الايام انضم الى صفوفهم جمهورى خائن زودهم بمئات الجوازات الرسمية البيضاء ، فكانوا يضعون فيهـا ما يشاءون من الأسماء والصفات . وبهذه الوسيلة استطاع رسلهم أن ينتقلوا بين صفوف الجمهوريين وتحت أنظارهم فى يسر وسهولة .

كانت أسلحتهم مكونة من الخناجر والسيوف والحراب والمناجل والعصى والبنادق . ولم يكونوا يعرفون المدافع فى اول عهدهم بالثورة على الجمهورية . بل كانوا يفزعون منها . ولما أتيح لهم أن يغنموا مدفعا فى احدى المواقع ويقـدروا تأثيره وفـائدته ، اتجـه همهم الى غنم ما يستطيعون من المدافع ، وتوافر لهم منها عدد كبير . كما ان انجلترا مدت زعماءهم بطائفة من المدافع .

وكانوا اذا اشتبكوا فى موقعة يبرزون فجاة من ظلمات الغابة ، ويثبون على اعدائهم صارخين صرخات وحشيـة ، وينهالون عليهم قتلا وذبحا . ثم يختفون فجاة كما جاءوا ، ولا يبقى من دليل عليهم سوى آثار التخريب والدمار .

كانت جيوش « فنديه » تضم نصـف مليون مقاتل ، واذا كانت

ثورتها على الجمهورية قد صمدت زمنا ما ، وكانت شوكة فى جنب الجمهورية ، فانها فشلت آخر الأمر . وانهزمت .

واذا كانت غيرها من الثورات مثل ثورة سويسرا قد نجحت . فالفارق بارز بين ثورة الجبال وثورة الغـابات . فان ثورة سويسرا كانت لنشدان المثل الأعلى : أما ثورة « فنديه » فكانت قائمة على التعصب ، والفرض ... الأولى تتسامى ، والثانية تزحف . الاولى تبغى الحرية . والثانية تطلب العزلة . الاولى ترفع رأسها فى السماء والثانية تدس رأسها فى الغابة . الأولى شامخة . والثانية حائرة .

كانت ثورة « فنديه » قائمه على التعصب للاقليم ، ضد الوطن . والتشييع للفكرة المحدودة ضـــد الراى الحر المتشعب . ولذلك انهزمت .

الفصل الثامن

فى ميادين (فندبه)

ـ ١ ـ

المسافر

فى اصيل يوم من ايام يوليو ترجل مسافر عن ظهر جواده ووقف عند مدخل الخان الكائن فى نهاية الطريق الممتد من بلدة « افرانش » فى مقاطعة « بريتانى » .

كان القادم يلتف بعباءة ويلبس قبعة رحبة تعلوها شـارة مثلثة الالوان ، وهى شعار خطر فى هذه المناطق المجاورة للغابات .

فتح باب الخان عند سماع صوت حوافر الجواد ، وخرج صاحبه لاستقبال القادم ، حاملا بيده مصباحا ، ولما راى الشارة المثلثة قال :

ــ هل تنزل هنا ايها المواطن ؟

ــ لا .

ــ والى اين تذهب اذن ؟

ــ الى بلدة « دول » .

ــ فى هذه الحالة انصحك بالعودة الى « افرانش » .

ــ وما السبب ؟

ــ لان القتال دائر فى « دول » .

فقال المسافر : آه !

ثم استطرد : قدم اكلا للجواد .

رفع صاحب الخان العنان من فم الجواد وقدم اليه العلف .

ثم استانف حديثه مع القادم :

ــ هل هذا الجواد لك ايها المواطن ؟

ــ نعم . انى ابتعته بمالى الخاص .

ــ من اين جئت ؟

ــ من باريس .

ــ هل جئت من باريس راسا ؟

ــ لا .

ــ هذا صحيح .. فالطرق مقفلة .. لكن مركبات البريد لا تزال تواصل سيرها .

ــ لغاية (النسون) .. وقد نزلت منها هناك .

ــ ستختفى مركبات البريد من فرنسا بعد زمن قصير .. الجواد الذى يساوى ثلثمائة فرنك يباع الآن بضعف ثمنه .. وعلف الجياد ارتفع على الاثمان .. انى كنت من قبل ادير خانا للبريد ، لكنى الآن اشرف على مطعم ، ان مائتين من اصحاب خانات البريد الثلثمائة قد اعتزلوا هذه المهنة ، هل سـافرت ايهـا المواطن وفقا للتعريفة الجديدة ؟

ــ طبقا لتعريفة مايو .. وهى الأخيرة .

ــ لابد انك دفعت ثمنا كبيرا اثناء انتقالك فى مركبات البريد .. هل اتعبت جوادك من (النسون) ؟

ــ نعم .

ــ وهل ركبت طول النهار ؟

ــ منذ الفجر .

ــ وامس ؟

ــ وقبل امـس .

ــ انى ارى عليك مظاهر التعب فى الواقع .. اسمع نصيحتى واسترح بعض الوقت .. ان جوادك شديد الاعياء .

ــ من حق الجياد ان تتعب .. أما الرجال فلا .

تفرس صاحب الخان فى وجه المسافر ، فراى فيه دلائل الرزانة والهدوء والصرامة ، يكللها شعر أشيب .

القى صاحب الخان نظرة على الطريق المقفر ، وقال :

ــ وهل تسافر وحدك بهذا الشكل ؟

ــ معى حارس .

ــ اين هو ؟

ــ سيفى ومسدساى .

وحمل صاحب الخان دلوا من الماء قدمه الى الجواد ، وقال فى

نفسه وهو يتطلع الى هيئة المسافر : مهما يكن فمظهره اقرب الى القسس .

قال المسافر : تقول ان القتال دائر فى بلدة (دول) ؟

ــ نعم .

ــ ومن المتقاتلون ؟

ــ نبيل سابق ضد نبيل سابق .

ــ ماذا تقول ؟

ــ نبيل سابق جمهورى ، ضد نبيل سابق ملكى . والغريب فى هذا القتال ان الاثنين من اسرة واحدة .

اصغى المسافر بعناية ، واستطرد صاحب الخان :

ــ احدهما شاب والثانى كهل . الاول ابن الاخ والثانى هو العم . العم ملكى ، وابن الاخ جمهورى . العم يقود البيض . وابن الاخ يقود الزرق .. آه ! ثق أنهما لن يعرفا معنى الرحمة فى هذه الحرب . هى حرب هائلة حتى الموت .

ــ الموت ؟

ــ نعم ايها المواطن .. هل تحب أن ترى التحيات التى يتبادلانها ، هنا اعلان نشره العم الكهل فى كل مكان ، على جدران البيوت وفوق جذوع الأشجار ، وقد وجدت صورة منه على بابى .

رفع صاحب الخان مصباحه وادناه من رقعة مربعة ملصقة على الباب ، فطالع المسافر فيها ما يلى :

« يتشرف الماركيز دى لانتناك بابلاغ ابن أخيه الفيكونت جوفان بانه اذا اسعده الحظ باعتقاله ، فسيعدمه بالرصاص » .

واردف صاحب الخان : وهذا هو الجواب . واشار الى اعلان آخر ملصق بالباب الثانى . فطالع المسافر ما يلى فى ضوء المصباح .

« ينذر جوفان ، لانتناك بانه اذا اسره فسيأمر باعدامه بالرصاص » .

وقال صاحب الخان : الصق الاعلان الأول على بابى امس ، والصق الثانى هذا الصباح ، دون انتظار الرد .

قال المسافر فى صوت خافت كلاما سمعه صاحب الخان دون ان يفقه مدلوله ، وكان المسافر يناجى نفسه .

ــ نعم . هى اكثر من مجرد حرب اهلية . هى حرب عائلية . هى لازمةومحمودة . لابد من دفع هذا الثمن لتوطيد حرية الشعب توطيدا نهائيا .

ورفع المسافر قبعته وحيا الاعلان الثانى الذى ما فتىء يحدق فيه . فقال صاحب الخان :

ــ لا شك انك فهمت الآن وضع المسألة ايها المواطن . نحن فى المدن والبلدان الكبيرة موالون للجمهورية . اما فى الأرياف فهم ضدها . هى حرب اهل المدن ضد الفلاحين . والنبلاء والقسس يشدون ازرهم .

وقاطعه المسافر : ليسوا كلهم .

ــ بلا ريب ايها المواطن ، فامامنا هنا فيكونت ضد ماركيز .

ثم قال صاحب الخان فى نفسه : وانا واثق انى اخاطب احد القسس .

سأل المسافر : ومن منهما متفوق على الآخر ؟

ــ الفيكونت حتى الآن . لكنه مضطر للنضال الشاق ، فان القائد الكهل قوى الشكيمة ، شديد البأس . وكلاهما من اسرة جوفان ، اشراف هذه المقاطعة . وهذه الأسرة ذات فرعين ، فرعها الاكبر على راسه الماركيز دى لانتناك ، أما الفرع الأصغر فعلى راسه الفيكونت جوفان . وهذان الفرعان يتقاتلان الآن احدهما ضد الآخر .

وهذا الماركيز لانتناك شديد النفوذ فى اقليم (بريتانى) : فالفلاحون يضعونه فى مصاف الأمراء . وما كاد يمضى يوم واحد على نزوله الى الشاطىء حتى انضم اليه آلاف من المقاتلين ، وفى ظرف اسبوع انضمت اليه ثلاث مقاطعات كاملة . ولو استطاع ان يصل بجيوشه الى الساحل لنزل الانجليز الى البر . لكن جوفان كان قريبا لحسن الحظ ، ومن عجائب الصدف انه ابن اخيه . وهو قائد الجيش الجمهورى ، وسرعان ما صد عمه وأوقف زحف جيوشه .

وشاء حسن الحظ كذلك حينما وصل لانتناك وامر بذبح طائفة كبيرة من الأسرى ان كان بينهم امراتان امر باعدامهما رميا بالرصاص ايضا ، وكان لاحداهما ثلاثة أطفال تبنتهم فرقة من باريس معروفة باسم الفرقة الحمراء ، فثارت ثائرة جنود الفرقة المذكورة ، وأبلوا فى القتال الدائر احسن البلاء ، مع أن عددهم يسير .. وقد اندمجوا اخيرا فى الجيش الذى يقوده جوفان .. ولا يمكن ان يقف فى طريقهم حائل ، وهم مصممون على الثأر للمراتين واستعادة الاطفال .. ولا يعلم احد ما يثير الجنود الباريسيين ويضرم نار الهياج فى صدورهم .. ولو لم يتصل أولئك الأطفال بموضوع القتال لما تطور على النحو الحالى .

ان الفيكونت شاب باسل طيب القلب .. اما الماركيز الكهل فهو رجل صارم شديد القسوة .. الا تتناول شيئا من الطعام ايها المواطن ؟

— انى احمل بعض الطعام والشراب .. لكنك لم تخبرنى بما يحدث فى بلدة (دول) .

— هذا هو ما يحدث .. ان جوفان يقود جيش الساحل .. كان لانتناك يرمى الى اثارة تمرد عام شامل فى مقاطعتى (بريتانى) و (نورماندى) قرب البحر ، ويفتح الباب أمام الجيش الانجليزى ؛ ثم يتقدم بجيش مدته عشرون الفا من الانجليز ومائتا الف من الفلاحين، فجاء جوفان وافسد هذه الخطة .. كان الساحل فى يده ، فارغم لانتناك على التراجع الى الداخل وطرد الانجليز فى البحر .

وكان لانتناك هنا ، فاخذ جوفان يتعقبه وينتزع منه مواقعه واحدا بعد الآخر حتى حال بينه وبين الوصول الى جرانفيل على الساحل ، وهو يرمى الى حبسه فى غابة فوجير كما كان ومحاصرته .. وكان كل شيء حتى امس يسير سيرا مرضيا .. وفجأة قام القائد الكهل بمناورة بارعة . فقد تواترت الانباء بانه يسير قاصدا الى بلدة (دول) .. واذا استولى على هذه البلدة ونصب مدفعه على جبل (دول) لتهيأت له منطقة ينزل منها الانجليز الى البر ، ولخسر جوفان كل شيء .

لكن جوفان جندى باسل مقدام . وسرعان ما جمع بعض جنوده وتقدم الى الأمام دون ان ينتظر أمرا .. وفى الوقت الذى يهاجم فيه لانتناك بلدة (دول) ، يعمد جوفان الى مهاجمة لانتناك نفسه .. وفى هذه البلدة يدور القتال الآن بين الاثنين .. وهو قتال رهيب مروع .

— كم يستغرق الوصول الى (دول) ؟

— ان المسافة يقطعها الجيش بمدافعه فى ثلاث ساعات على الاقل .. لكنهم الآن فيها .

ارهف المسافر سمعه وقال :

— يخيل الى فى الواقع انى اسمع صوت المدافع .

اصغى صاحب الخان بدوره وقال :

— نعم أيها المواطن .. وكذلك دوى الرصاص .. ان المعركة بدات .. ويحسن بك ان تمضى الليل هنا .

— لا يمكن ان اتوقف .. لابد أن اواصل السير .

— انت مخطىء .. انا لا اعرف مهمتك .. لكنك تقوم بمجازفة كبيرة .. واذا لم تكن هذه المهمة متصلة بأعز ما تملكه فى الدنيا .

فقال المسافر : فى الواقع هى كذلك .

— تتصل بولد لك مثلا ؟

فقال الراكب : تكاد تكون كذلك .. والآن امد العنان الى الجواد .. بكم انا مدين لك ؟

نقد المسافر صاحب الخان المبلغ الذى طلبه ثم امتطى جواده فقال له صاحب الخان :

— ما دمت تصر على الذهاب فاسمع نصيحتى .. انت ذاهب الى « سان مالوا » .. فاذا كان الأمر كذلك فلا تذهب عن طريق (دول) امامك طريقان : طريق (دول) وطريق الساحل ... ويكاد الطريقان يتساويان طولا .. وعند نهاية هذا الشارع ستجد مفترق الطريقين .. فأما طريق « دول » فيتفرع الى اليسار ، واما طريق الساحل فالى اليمين . استمع جيدا لنصيحتى .. اذا ذهبت من طريق « دول » تستقع فى وسط المذبحة .. ولذلك انصحك بالسير فى الطريق الايمن .. طريق الساحل .

فقال الراكب وهو يهمز جواده : شكرا .

ابتعد الراكب فوق جواده ، واختفى عن نظر صاحب الخان فى الظلام . ولما وصل المسافر الى مفترق الطريق سمع صوت صاحب الخان يناديه من بعد : سر الى اليمين .

لكنه سار الى اليسار .

— ٢ —

مفاجاة

« دول » بلدة قديمة فى مقاطعة « بريتانى » ذات مبان منشأة على النظام القوطى ، يخترقها شارع واحد طويل تمتد المساكن على جانبية بواجهاتها البارزة وشرفاتها القائمة على اعمدة . اما باقى البلدة فهو شبكة من الازقة والمنعطفات تتصل جميعا بالشارع الرئيسى .

كانت هذه البلدة مكشوفة بغير أسوار ولا ابواب ، يشرف عليها جبل « دول » ، ويسهل غزوها . غير أن منازلها كانت فى ذاتها

معاقل يحتمى بها المدافعون . وكان للبلدة سوق قديمة تتوسطها .

كانت « دول » كما قرر صاحب الخان فى الفصل السابق مسرحا لمعركة طاحنة تدور فى أرجائها . فقد اجتاحها البيض فى الصباح . وما كاد يأتى المساء حتى انقض الزرق على البيض يحاولون اجلاءهم من البلدة وانتزاعها من قبضتهم . وكان جيش البيض مكونا من ستة آلاف من المقاتلين . اما الزرق فلم يتجاوز عددهم الفـــا وخمسمائة . . واعجب ما فى الأمر ان القـــلة هى التى هاجمت الكثرة .

اما جيش البيض الذى يناضل عن الملكية فكان خليطا من الفلاحين واهل الغابات ، ليس لهم نظام عسكرى معروف ولا أسلحة موحدة ، غير انهم كانوا مستميتين مشهورين بالشراسة والاستبسال .

وأما جيش الزرق الذى يمثل الجمهورية فكان منظما تام التدريب على الفنون العسكرية ، مزودا بأسلحة حديثة . وكانوا يشاركون اعداءهم فى شراستهم واستماتتهم .

وكان على رأس الجيش الجمهورى القائد جوفان . وهو شاب فى الثلاثين من عمره ، شديد البسالة والاقدام ، يتقدم جنوده شاهرا سيفه لا يبالى ما يصيبه ، ويضرب لهم احسن الامثال فى احتمال الجندى وصبره على أهوال الحرب وويلاتهـــا . وهو الى جانب بسالته ، وديع الأخلاق ، طيب القلب ، راجح الفكر ، ذو نزعات فلسفية .

وكان لانتناك قائد الجيش الملكى جنديا كاملا مثل جوفان . غير انه كان يفوقه جراة واقداما . ولهذه المسألة تعليلها الطبيعى . فان لانتناك فى دور الكهولة ، قريب من القبر ، لا يبالى أكان الموت ام الحياة نصيبه . ومن هنا اصطبغت أعماله الحربية بطابع المغامرة الشديدة والبراعة . وكان الى هذا ناقمـــا على جوفان لقتاله ضده اولا ولكونه ابن اخيه ووريثه الوحيد ثانيا ، ولذلك صمم على أن يقتله بلا تردد اذا وقع فى قبضته .

كان لانتناك يعرف ان جنوده وان كانوا شجعانا مغامرين ، الا انه تنقصهم الخبرة العسكرية اللازمة فى الحروب الكبيرة . ولذلك كانت خطته موجهة الى ايجاد منفذ على الساحل تنزل منه الجنود الانجليزية المنظمة ، حتى اذا تم له ذلك تصدى لمنازلة الجمهورية جامعا بين الحرب النظامية والحرب الوحشية . ولما رأى ان الاستيلاء على بلدة « دول » يمكنه من نصب مدافعه على الجبل ، لم يتردد فى الهجوم على هذه البلدة .

فاجأ لانتناك « دول » بجيشه الكبير ، واستولى على البلدة بغير مقاومة ، ولجأ السكان الى بيوتهم وتحصنوا فى داخلها . ثم تفرق رجاله فى كافة نواحى البلدة . وتخلوا عن مدافعهم واسلحتهم . فمنهم من ذهبوا الى الكنائس ، ومنهم من راحوا يطهون طعامهم فى الهواء الطلق اذ لم تكن لهم خيام ولا معسكرات . بينما أسرع لانتناك مع طائفة من رجال المدفعية لتفقد جبل « دول » استعدادا لنصب المدافع على قمته وترك قيادة الجيش مؤقتا الى نائبه ايمانوس .

كان ايمانوس مقاتلا شديد الباس مشهورا بشراسته ووحشيته . غير انه كانت تنقصه الدراية الحربية الفنية . ولم تتجاوز الاحتياطات التى اتخذها بعد ذهاب لانتناك سوى تعيين بعض الحراس دفعـــا للمفاجآت .

وفيما كان لانتناك عائدا الى البلدة فى المساء بعد ان اتم معاينة المواقع التى ينصب فيها مدافعه فوق جبل « دول » سمع وهو فى منتصف الطريق الى البلدة دوى مدفع . ولما التفت امامه شاهد دخانا أحمر يرتفع من الشارع الرئيسى . فادرك فى الحال ان هجوما وقع على رجاله ، وان معركة جديدة تدور فى البلدة .

استحث لانتناك جواده . وصادف فى الطريق بعض السكان يفرون مذعورين . ولمـــا استطلعهم الخبر قرروا ان الزرق هجمـــوا على البلدة .

— ٣ —

جيوش صغيرة ومعارك عظيمة

تفرق رجال لانتناك فى البلدة بعد استيلائهم عليها . كانوا تعبين من اثر الجهد الذى بذلوه . . فانصرفوا لتناول الطعام والشراب ولما جاء المساء تمددوا فى الشارع الرئيسى فوق مهماتهم ، واستسلموا للنوم .

وفجاة ، لمح بعض الجنود الذين لم يناموا بعد ثلاثة مدافع تصوب عند مدخل الشارع .

كانت هذه مدفعية جوفان . وقد فاجأ رجاله الحراس القائمين عند مدخل الشارع وقضوا عليهم ، وبات المدخل فى أيديهم .

وثب احد الفلاحين مرتاعا صارخا واطلق بندقيته . فجاوبه قصف

مدفع . وفى اللحظة التالية استيقظ النيام مذعورين مروعين ، واخذوا يطلقون بنادقهم فى غير وعى وعلى غير هدف معين ، حتى كانوا يصيبون بعضهم بعضا . وارتفع الصراخ من كل مكان . ونفر السكان من بيوتهم مذهولين جزعين يتنادون ويتصايحون . وجمحت الخيول واندست مركبات المهمات وحاملات المدافع فى وسط الميدان. فاختلط الحابل بالنابل ، وسادت الفوضى والرعب .

وفى ابان هذا الاضطراب المروع ، كانت مدافع جوفان ترسل عليهم نيرانها حامية ، فأخذ الفلاحون يتساقطون صرعى كالفراش المحترق .

على ان الفلاحين لم يلبثوا ان تغلبوا على تاثير هذه المفاجاة ، فجمعوا صفوفهم وانسحبوا الى السوق وتحصنوا خلف اعمدتها ومبانيها المتعددة . وجمعوا امامهم كل ما استطاعوا جمعه من الصناديق والامتعة ، فجعلوا منها استحكامات ووقفوا خلفها يرسلون على اعدائهم وابلا من نيران بنادقهم . ولم يستطيعوا استخدام المدافع التى كانت معهم لغياب ضباط المدفعية فى صحبة لانتناك .

تحصن الفلاحون فى السوق ، وصمدوا للهجوم المفاجىء الذى قام به جوفان . وتحسن موقفهم .

لم يكن جوفان يتوقع هذه المفاجاة . وخاف الهزيمة فهبط من فوق جواده . ووقف يصوب نظره فى الظلام ، فى ضوء مشعل ينير بطاريته . ولم ينتبه لانشغاله بالتفكير فى الموقف الى انه كان فى هذا الموقف ظاهرا لأعين العدو المتحصن ، هدفا لرصاصه .

وفجاة دوى من معسكر الاعداء صوت كقصف الرعد ، واستقرت قذيفة فى بيت وقف جوفان فى ظله . ثم اعقبتها قذيفة ثانية استقرت فى جدار قريب منه ، وثالثة اطارت قبعته .

هتف احد جنود جوفان :

— هم يقصدونك أيها القائد !

اطفىء المشعل بسرعة . وانحنى جوفان فوق الارض وتناول قبعته كانه فى حلم .

والواقع أن جوفان كان مقصودا بهذه القذائف . وكان الأمر بها هو لانتناك ، فانه وصل الى ميدان المعركة وانضم الى رجاله خلف الاستحكامات التى انشأوها .

وبادر اليه ايمانوس قائلا :

— هوجمنا يا مولاى !

— ممن ؟

— لا ادرى .

— هل الطريق الى (دنيان) مفتوح ؟

— اظن ذلك .

— لابد ان ننسحب .

— تم هذا فعلا . فان عددا كبيرا من رجالنا هربوا .

— يجب الا نهرب . بل يجب ان نتقهقر بانتظام . لم لا تستخدمون المدافع ؟

— طاش صواب الرجال . كما ان ضباط المدفعية لم يكونوا موجودين .

— هاانذا عدت للاشراف على كل شىء .

— مولاى .. انى ارسلت الى (فوجير) جميع الأمتعة والنساء وكل ما يمكن الاستغناء عنه .. ماذا نفعل بالأطفال الثلاثة الاسرى ؟

— هم غنائمنا .. ارسلهم الى حصن (لاتورج) .

اسرع الماركيز على اثر هذه المحادثة الى منطقة الاستحكامات .. وامر رجاله بنصب مدفعين فى فتحات اختارها .. وفيما هو يراقب معسكر الأعداء لمح جوفان ، فهتف : هذا هو !

حشا الماركيز أحد المدفعين بنفسه ، واطلقه بيده ثلاث مرات جاعلا جوفان هدفه ، غير انه اخطاه فى كل مرة ، وفى المرة الثالثة تمكن فقط من اسقاط قبعته .

زمجر لانتناك ساخطا .. وفى اللحظة التالية انطفأ المشعل ، وساد الظلام امامه ، فتخلى عن المدفع ، وامر رجاله باصلاء معسكر جوفان نارا حامية من المدفعين .

لم يسكت جوفان من ناحيته .. فقد تطور الموقف ، ورأى اعداءه يستخدمون المدافع ، هذا الى ان عددهم كان أضعاف عدد رجاله ، واذا فطنوا الى هذه الحقيقة ووجدوا لهم منفذا من هذا الحصار فقد تنقلب الكفة ، ويتغير موقف لانتناك من الدفاع الى الهجوم .

لم يكن يستطيع ان يهجم على اعدائه من الامام ، فلو فعل لتعرضوا جميعا للهلاك ، وأخذ يفكر فى خطة للخلاص من هذه الورطة .

كان جوفان من اهل هذا الاقليم ، خبيرا بطبيعته ، وكان يعرف بوجود شبكة من الأزقة المتداخلة خلف السوق التى تحصن فيها رجال لانتناك ، ولذلك التفت الى نائبه جيشام وقال له :

— جيشام .. ساترك لك القيادة ، اطلق المدافع باستمرار وبكل

سرعه ، اشغل اولئك الرجال ولا تدعهم يستريحون لحظة :

فقال جيشام : فهمت ايها القائد .

— احشد جميع الرجال فى صفوف متراصة ، ولتكن بنادقهم على تمام الاستعداد .

— سمعا وطاعة .

واستطرد جوفان : عندنا تسعة من جنود الطبول . ابق معك اثنين ، واعطنى سبعة .

واصطف الجنود السبعة صفا واحدا امام جوفان فى سكون ، نهتف جوفان :

— يا جنود الفرقة الحمراء !

تقدم اثنا عشر جنديا بينهم جاويش ، فقال :

— أريد الفرقة كلها .

فأجاب الجاويش : ها هى كلها .

— أنتم اثنا عشر .

— لم يبق منا غير هذا العدد .

فقال جوفان : لا بأس .

كان الجاويش هو رادوب ، ذلك الجندى الطيب القلب الذى تبنى باسم (الفرقة الحمراء) الأطفال الثلاثة الذين عثرت عليهم مع امهم فى غابة (سودراى) . ومن حسن حظه انه لم يكن مع الباقين من رجاله بين سائر جنود الفرقة التى اغارت على مزرعة « زهرة الشاطىء » ثم داهمها البيض واعدموا رجالها كما مر فى الفصول السابقة .

أمرهم جوفان بخلع احذيتهم ، ففعلوا . وكان عددهم جميعا ، وفى جملتهم جوفان ، عشرين رجلا .

هتف فيهم جوفان : اتبعونى صفا واحدا . جنود الطبول خلفى مباشرة . وباقى الفرقة وعلى رأسها الجاويش رادوب بعد ذلك .

سار جوفان على رأس الجميع بينما كان اطلاق النار مستمرا من الجانبين واخذوا يتسللون فى الأزقة الضيقة فى سكون تام ، ولم يصادفهم احد فى طريقهم ، فقد لجأ الناس الى بيوتهم واحتموا فيها ، وانهمك الجنود البيض فى القتال فلم يلتفتوا الى ما عداه . وكان الشارع الرئيسى مسرحا لمعركة جهنمية طاحنة .

ظل جوفان يتقدم رجاله نحو ثلث ساعة وهو لا يخطىء طريقه فى الظلام . واخيرا وصلوا الى نهاية زقاق ضيق يفضى الى الشارع

العمومى حيث توجد السوق . لكنهم جاءوا من الناحية الخلفية ، حيث وقف البيض مولين ظهورهم اليه ، منهمكين فى القتال الدائر امامهم .

كانوا عشرين فى مقابل خمسة آلاف من البيض .. لكن هؤلاء لم يكونوا متحصنين من الخلف . وسرعان ما القى جوفان أوامره الى الجاويش رادوب بصوت خافت .. فوقف جنود الفرقة الحمراء الاثنا عشر صفا واحدا فى مدخل الزقاق ، ورفع جنود الطبول عصيهم منتظرين الاشارة .

كان اطلاق المدافع متقطعا .. وانتهز جوفان فترة بين طلقتين ، فصاح فى صوت تردد فى وسط السكون وهو شاهر سيفه :

— مائتان الى اليمين ! . مائتان الى اليسار ! . الباقى فى الوسط .

— وعلى اثر هذا النداء اطلقت البنادق الاثنتا عشرة ، وقرعت الطبول السبعة مرة واحدة .

ثم صاح جوفان بأعلى صوته :

— اشهروا حرابكم ! .. اهجموا عليهم !

كان لهذه المناورة تأثير شديد .. فقد اخذ الفلاحون على غرة ، واعتقدوا بوجود جيش جديد خلفهم .. وفى نفس اللحظة اصدر جيشام امره لرجاله من الأمام ، فهجموا مستبسلين على البيض الذين ذهلوا وهم متحصنون خلف استحكاماتهم .. ووجدوا أنفسهم بين نارين .

فى هذه المواقف يتضاعف التأثير ، ويخيل للانسان أن صوت الرصاصة هو دوى مدفع ، هذا الى ان الفلاحين سريعو التأثر . وسرعان ما استولى عليهم ذعر شديد ودب الرعب فى قلوبهم ، وساد الاضطراب صفوفهم .. واركنوا الى الفرار والنجاة .

وما هى الا دقائق معدودة حتى اخليت السوق من الفلاحين ، واطلقوا سيقانهم للريح من كافة المنافذ المؤدية الى خارج البلدة . وعبثا حاول ايمانوس وسائر الضباط ايقافهم

رأى الماركيز دى لانتناك هزيمة رجاله بعينيه .. ولما يئس من الموقف أتلف المدافع بيديه .. واخذ يتقهقر ببطء وهدوء وهو يقول لنفسه :

— من المؤكد ان الفلاحين لن يصمدوا .. لابد من الاستعانة بالانجليز .

— ٤ —

المرة الثانية

تم النصر لجوفان .. والتفت الى جنود « الفرقة الحمراء » قائلا :

— انتم اثنا عشر .. لكنكم بالف .

واسرع جيشمام لمطاردة الهاربين بامر جوفان ، واسر منهم عددا كبيرا .

واضيئت المشاعل فى كافة نواحي البلدة واجرى فيهـــا تفتيش دقيق . ومن لم يتكمن من الافلات من جنود البيض اعلن الخضوع والتسليم . وامتلأت أرض الشارع العمومى بجثث القتلى والجرحى .

ولاحظ جوفان أثناء انسحاب البيض رجلا منهم قوى البنية اخذ يحمى تقهقر زملائه ، دون أن يحاول النجاة بنفســه .. وكان يطلق النار احيانا من فوهة بندقيته ، واحيانا يستخدمها كهراوة ينبج بقاعدتها الرءوس .. ولما تحطمت البندقية القـــاها جانبا وامـــك بمـــدسه فى احدى يديه وبسيفه فى اليد الثانية ، فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منه .

وفجاة رآه جوفان يترنح ويرتمى فوق أحد الاعمدة القريبة منه ، فقد جرح الرجل اخيرا ، غير انه لم يشأ ان يتخلى عن مـــدسه وسيفه فتابط جوفان سيفه وتقدم من هذا الرجل قائلا :

— سلم نفسـك .

تعرس الرجل فى وجه جوفان .. كان الدم ينزف منه بغزارة ويكون بركة تحت قدميه .. واستطرد جوفان قائلا :

— انت اسيرى .

بقى الرجل صامتا ، فقال جوفان :

— ما اسمك ؟

فاجاب الرجل : اسمى (الخيال الراقص) .

فقال جوفان : انت رجل باسل .

ومد له جوفان يده .

هتف الرجل : يحيا الملك !

وفى لمح البصر استجمع مابقى له من قوة ورفع يديه معا واطلق مسدسه على جوفان وصوب الى راسه ضربة قاتلة بحد سيفه .

فعل الرجل هذا بخفة النمر .. ولكن شخصا آخر كان أسرع منه .

فقد وصل منذ بضع دقائق رجل يركب جوادا ولم يفطن احد الى قدومه وشاهد الفلاح يشهر سيفه ومسدسه .. فاندفع بجواده بينه وبين جوفان .. ولولا هذه الحركة لقضى على جوفان وكان فى عداد الاموات .

استقرت رصاصة المسدس فى الجواد .. وتلقى الراكب ضربة السيف وهوى الاثنان معا .

اما الفلاح فسقط بدوره على الارض .

أصابت ضربة السيف الراكب فى وجهه .. فتمدد فوق الارض لا حراك به .. أما الجواد فقد اسلم الروح .

دنا منه جوفان قائلا : من هذا الرجل ؟

وجعل يتفرس فى وجهه .. غير ان الدماء نزفت غزيرة من الجرح الذى اصابه وتخضب وجهه ، فاستحال تمييز ملامحه .. ولم يبد منه غير شعره الاشيب .

استطرد جوفان قائلا : هذا الرجل أنقذ حيـاتى . فهل منكم من يعرفه ؟

فاجاب احد الجنود : ايها القائد .. هو جاء منذ بضع دقائق .. وقـد رايت دخـوله الى البلدة .. وكان آتيا من اتجــاه بلدة (افرانش) .

أسرع طبيب الجيش بأدواته وتولى فحص الجريح الذى كان غائبا عن رشده ثم قال :

— هذا جرح يسير .. يمكن ان يلتئم بسهولة .. وسيشفى فى ظرف ثمانية ايام .

كان الجريح يرتدى عباءة وقبعة رحبة ذات شارة مثلثة الالوان ويحمل سيفا ومسدسين .. وجيء بنقالة وضع فوقها واخذ الطبيب ينظف الجرح ؛ وظهرت ملامح وجهه .. فتفرس فيها جوفان بدقة وقال :

— هل يحمل اوراقا ؟

فتش الطبيب جيوب الجريح واخرج من احدها حافظة اوراق قدمها الى جوفان ؛ وفى هذه اللحظة دب الانتعاش فى كيان الجريح بتاثير الماء البارد واخذ يفيق من غيبوبته واختلجت اجفانه .

فحص جوفان حافظة الاوراق ، فوجد فيها رقعة مطوية من الورق

بسطها وطالع فيها الكلمات : « لجنة الامن العام المواطن سيموردان » .
هتف جوفان : سيموردان .
وما كاد الجريح يسمع هذا الاسم حتى فتح عينيه ، اما جوفان فاستولى عليه ذهول جنوني واستطرد :
سيموردان ! .. هو انت ! .. انك انقذت حياتي للمرة الثانية !
تطلع اليه سيموردان بعينين يلمع فيهما بريق الفرح . فركع جوفان على ركبتيه بجانبه وهتف :
ـ استاذي !
فقال سيموردان : بل والدك !

ـ ٥ ـ

امل يتهدم

لم يتقابل كلاهما اعواما طويلة .. لكنهما كانا على اتصال روحي ، وتذكر كلاهما صاحبه كانه فارقه منذ قليل .

حمل سيموردان الى المستشفى ، ووضع في غرفة خاصة ، وخاط الطبيب الجرح ، واضطر جوفان ان يتخلف عنه تلبية للمشاغل المتعددة التي تستلزم تفرغه لها بحكم النصر الذي احرزه ، وبقي سيموردان وحده في الغرفة ، لكنه لم يستطع النوم ، فقد انتابته حمى المرض ، وحمى الفرح بلقاء جوفان .

لم يصدق سيموردان انه وجد جوفان ثانية بعد طول الفراق .
ولم يكن هناك حد لسعادته . فقد تركه طفلا . وقابله رجلا . بل وجده قائدا عظيما مظفرا وبطلا جريئا . وكان هذا النصر الذي احرزه لحساب الشعب . كان جوفان عماد الثورة الفرنسية في اقاليم « فنديه » ، وسند الجمهورية الحقيقي . وكان سيموردان وحده هو الذي صاغ هذا البطل ونفخ فيه من روحه . وقدمه للجمهورية .

راى سيموردان بعين الفكر ان جوفان يتسنم ذروة المجد شيئا فشيئا .
فليس امامه الا ان يحرز نصرا ثانيا كهذا ، فيتقدم سيموردان الى الجمهورية ويزكي هذا القائد الشاب المتفاني في نصرتها ، وينصح بان تلقى اليه مقاليد جيوشها ، وينصب قائدا عاما لقواتها .

طفت هذه الخواطر والاحلام على ذهن سيموردان حتى اذهلته عن نفسه واثلجت فؤاده . وفيما هو كذلك طرق سمعه صوت حوار يدور في عنبر المستشفى المجاور لغرفته ، وعرف صوت جوفان الذي لم يمحه من ذاكرته رغم تعاقب الاعوام .

سمع احد الجنود يتقدم في خطواته العسكريه ويقول بعد وقوف :
ـ ايها القائد . هذا هو الرجل الذي اطلق الرصاص عليك . انه انتهز فرصة انشغالنا عنه وزحف الى احد الاقبيه وقد وجدناه وها هو امامك .

ثم سمع سيموردان بعد ذلك المحاورة التاليه بين جوفان وبين الاسير :
ـ انت مجروح ؟
ـ انا على استعداد تام للاعدام !
ـ احملوا هذا الرجل الى احد الاسرة . ضمدوا جراحه . اعتنوا به . عالجوه حتى يشفى .
ـ اريد ان اموت !
ـ لابد ان تحيا . حاولت اغتيال حياتي . لكني اعفو عنك باسم الجمهوريه .

ظللت سحابة وجه سيموردان . وخيل اليه انه يفيق فجاة من حلم . وغمغم قائلا في غم وانقباض .
ـ في الحق هو ممن يستجيبون لعواطف الرحمة .

ـ ٦ ـ

جرح باريء وقلب دام

ان مثل جرح سيموردان يبرا بسرعة .. لكن هناك مخلوق كان جرحه اخطر وادعى للقلق ، هو تلك المراة التي اطلق عليها الرصاص وانتشلها المتسول تلمارش من بين اشلاء القتلى في مزرعة « زهرة الشاطيء » .

كانت حالة ميشيل فليشار في الواقع اخطر مما ظن تلمارش ، فقد وجد علاوة على الجرح الذي تهشمت بسببه احدى عظام كتفها ، جرحا ثانيا ناتجا من رصاصة اصابت احدى عظام الصدر قرب العنق .

لكن تلمارش كان بارعا في التطبيب والتمريض ، فحمل المراة الى عرينه في الغابة ، وعكف على العناية بها ومداواتها بالعناصر الطبية الغامضة التي يعرف وحده سرها ، وبفضله عاشت المراة ونجت من الخطر .

مضت اسابيع التأمت جروح المرأة في اثنائها ، ودخلت في دور النقاهة ؛ واستطاعت أن تغـــادر الكهف وتسير متوكئة على ذراع تلمارش وجلست تحت اشعة الشمس مستندة الى احدى الاشجار .

لم تكن المرأة تتكلم في اول مراحل النقاهة . وكان تلمارش نفسه يمنعها من الكلام اذا همت به . لما تستلزمه جروح الصـــدر من الصمت والسكون . على انه كان يرى في محياها انعكاس افكار مضطربة تجيش في نفسها .

لكن تلمارش لم يتمالك في هذا اليوم وهي جالسة في ظل الشجرة بعد أن تم شفاؤها من ساوره الابتهاج بنجاتها على يديه ، فقال لها :

— ها نحن على اقدامنا من جديد .. لم تعد بنا جروح بعد .

فقالت المرأة : الا في القلب .

ثم اردفت بعد قليل : اذن لا تعرف أين (هم) ؟ .

سألها تلمارش : من (هم) ؟

— اولادي .

تحير تلمارش ولم يدر بماذا يجيب . فكل ما يعرفه انه حمل هذه المرأة وهي في حالة الموت بعد ان علم أن لانتناك أمر باطلاق الرصاص عليها وانتزع منها أطفالها وحملهم الى حيث لا يعلم ، وعكف على تمريضها حتى تم لها الشفاء . هذا كل ما يعرفه . اما ما فعل لانتناك بالأطفال فهو ما يجهله تلمارش جهلا تاما .

تلاشت الابتسامة من فم تلمارش حينما سمع كلمة المرأة الاخيرة ، وعادت المرأة الى الاستغراق في أفكارها . وفجأة التفتت اليه ، وهتفت مرة ثانية في نبرات تشف على الحدة والغضب : أولادي !

أطرق تلمارش برأسه كمن يحس بجرمه . فقد كان يفكر في هذه اللحظة في الماركيز دي لانتناك الذي لم يكن يشعر حتى بوجوده ، وناجى نفسه بهذه الكلمات : ان النبيل يعرف الانسان وقت الضيق . فاذا ذهب عنه تنكر له وادار ظهره .

ثم سأل تلمارش نفسه : لكن لماذا اذن انقذت هذا النبيل ؟ فاجاب عن نفسه بهذه الكلمات : لانه كان من بني الانسان .

واستغرق في التفكير لحظة ثم استطرد : وهل انا واثق حقا انه كذلك ؟

راح يردد كلماته السالفة : لو كنت اعرف !

طغت هذه الهواجس على نفس تلمارش ، ورأى أمامه لغزا تخبط في ظلماته . ان الخير قد ينقلب شرا في بعض الأحيان . فان الذي

ينعد الذئب يقضي على الغنم . واحس تلمارش في اعماق نفسه بانه ارتكب جريمة لا تغتفر . وان هذه الام محقة في نقمتها وغضبها .

تطلعت اليه المرأة بعينين مظلمتين وقالت :

— مهما يكن ؛ فلا يمكن ان تسير الامور على هذا النحو .

فقال تلمارش وهو يضع أصبعه على شفتيه : صمتا !

لكنها استطردت : انك اخطأت بانقاذي . وانا ساخطة عليك لهذا السبب . ليتني مت ؛ فكان محققا أن يتيسر لي لقاء اولادي حينذاك ، وكنت اعرف اين مقرهم . واذا كانوا يرونني ؛ فانى كنت اراهم واكون بقربهم .

تناول يدها وتحسس نبضها وقال :

— هدئي روعك . انك تتعرضين للحمى ثانية .

قالت في خشونة : متى يمكن ان ارحل من هنا ؟

— ترحلين ؟

— نعم . امشي !

— مستحيل . ليس هذا من الحكمة .

فاستحال صوتها الى الرقة وقالت :

— يمكنك ان تقدر انه يستحيل ان استريح وانا في هذه الحال . لم يكن لك اولاد . اما انا فكان لي . وهذا فارق جسيم . لا يمكن ان يحكم الانسان على شيء لا يعرفه . الم يكن لك أولاد ؟

فأجاب تلمارش : لا .

— أما انا فلم يكن لي في الدنيا سواهم . ما انا بدون أولادي ؟ اود ان اجد انسانا يفسر لي السبب في حرماني من اولادي . اني اشعر بالحوادث تجري من حولي . لكني لا افهمها . هم قتلوا زوجي . واطلقوا الرصاص علي . لكني لا افهم شيئا !

فقال تلمارش : كفى .. ان الحمى تنتابك من جديد . لا تتكلمي .

نظرت اليه ثم لزمت الصمت . ومنذ هذا اليوم لم تعد تتكلم .

لزمت الصمت المطبق . وكانت تطيع تلمارش في كل ما يوصيها به . لكنها كانت تقضي الساعات الطـــوال مستسلمة لتأملاتها وهواجسها . وفهم تلمارش اتجاه افكارها . فترجمها بهذه الكلمات : اذا كانت شفتاها لا تنطقان ، فان عينيها تترجمان عن افكارها . ان افكارها تدور جميعا حول نقطـــة واحدة ؛ كانت اما . فلم تعد كذلك . كانت تحنو على اطفـــالها ، ففقدت هذه الصفة . وهي لا تستطيع ان تذعن للأمر الواقع وتستسلم للحقيقة الراهنة . هي

تفكر في هذه الطفلة الرضيعة التي كانت تمتص حياتها ، وكانت مع ذلك سعيدة قريرة العين بها : لانها من حياتها تمدها بحياة جديدة .

احترم تلمارش صمت المراة ولم يحاول أن يقطع سلسلة افكارها . فان عاطفـــة الامومة غريزة معقده لا يمكن فهمها على ضوء العقل والتدليل . لـكنها غريزة بصيـرة لا تضل ولا تخطىء .

وقال لها ذات يوم : من سوء الحظ اني متقدم في السن ولا اقوى على السير الطويل . ولا تلبث قوتي ان تخور بعد ربع ساعة . واضطر للراحة . ولولا هذا المانع لرافقتك في السير . وربما كان من حسن الحظ الا افعل ؛ فاني اكون حملا ثقيلا عليك ، ولا افيدك بشيء . ان الزرق يرتابون في شخصي . والفلاحون يعدونني ساحرا .

وانتظر جوابها . لكنها لم تنبس بكلمة واحدة ؛ بل لم ترفع اليه عينيها ، وظلت غارقة في تصوراتها واحلامها .

وفي احد الايام رآها تلمارش تملأ كيسا بالكستناء . ثم تاهبت للرحيل وهي تحدق بنظرها الى اعماق الغابة . فقال لها :

— الى اين تذهبين ؟

فأجابت بهذه الكلمات : اني ذاهبة للبحث عن اولادي .

ولم يحاول تلمارش ان يحجزها .

— ٧ —

مذهبــان

مضت بضعة اسابيع دارت في اثنائها رحى الحرب الاهلية بين الزرق والبيض في عنف واستماتة لا حد لهما . ولم يكن للناس حديث في منطقة « فوجير » الا عن ذلك الصراع الهائل الدائر بين القائدين النبيلين ...

استمرت تلك الحروب الوحشية التي كان مجالهـــا في ميادين « فنديه » لكن البيض اخذوا ينهزمون ويفقدون مواقعهم واحدا بعد الآخر ، وذلك بفضل الضربة البارعة الاولى التي وجهها اليهم القائد جوفان الشـــاب في بلدة « دول » . ثم اعقب هذا الانتصـــار عــدة انتصارات جديدة ...

لكن نشأت من هذه الانتصارات حاله معقدة جديدة . صحيح ان كفة الجمهورية بفضل جوفان رجحت في هذه المنطقة من منـــاطق

« فنديه » . لكن الجمهور انقسم الى [illegible] واصطف الى [illegible] جوفان وسيموردان .

تمثلت الجمهورية في مذهبين [illegible] . مذهب الصرامة والارهاب . ومذهب التسامح والرحمه . فالمذهب الاول يقوم على استعمال القسوة والشدة لاحراز النصر والثـــاني على الرافة والرحمه لادراك هذه الغايه .

اما صاحب المذهب الصارم فهو سيموردان المندوب المفوض ، جاء من باريس مزودا بسلطة مطلقة وتفويض تام من « لجنه الامن العام » . شاهرا في يده سيف الارهاب الذي سلحه به : مجلس الامه) ؛ وهو يتمثل في هذه الكلمات الرهيبة : « يعاقب بالاعدام كل من يخرج عن اسير من زعمـــــاء الثائرين او يمهد له سبيل الفرار » .

واما صاحب المذهب المتسامح فهو جوفان القائد الشاب .. وكان سلاحه الوحيد ضرب العـدو بلا رحمة في الميـدان . والعفو عنه بعد المعركة .

ومن هنا نشأ بين هذين الرجلين صراع رهيب صامت . ونضال خفي عنيف ، كانا مدار الحديث على كل لسان .

واعجب ما في الامر ان هذين الخصمين المتناضلين كانا صديقين حميمين . بل كانا قلبا واحدا في جسدين . وقد انقذ الصـديق الصارم صديقه الحميم ؛ وقام الجرح الذي اصابه في وجهه دليلا ناطقا على عمق هذه الصداقة وتفانيها .

بل اعجب من هذا ان الصديق الصـــــارم كان من ابر الناس بالانسانية فقد كان يضمد الجروح ، ويعنى بالمرضى ، ويصل الليل بالنهار في المستشفيات الحربية يواسي ويخفف الآلام . ويجـود بماله على البائسين والمعوزين .

كان بين الرجلين صداقة وثيقة ؛ وبين مذهبيهما نضال رهيب وخصومة عنيفة . ولم تلبث المعركة الصامتة ان بدات بينهما . فقد قال سيموردان لجوفان في احد الايام :

— ماذا اتممنا حتى الآن ؟

فأجاب جوفان : انت تعرف هذا كما اعرفه .. اني فرقت شمل عصابات لانتناك .. ولم يبق له الا شراذم متفرقة .. ثم نطرد بعد ذلك الى غابة (فوجير) ولن تمضي الا ثمانية ايام حتى نحاصره .

— وبعد خمسة عشر يوما ؟

— سيؤخذ اسيرا .

— وبعد ذلك ؟
— هل قرأت الاعلان الذى اذعته ؟
— نعم .
— سيعدم بالرصاص .
— هذا تسامح ورحمة .. لابد من اعدامه بالمقصلة .

فقال جوفان : اما انا فافضل ان يعدم وفقا للتقاليد العسكرية .

فقال سيموردان : وانا اوثر ان يموت وفقا لتقاليد الثورة الجمهورية .

ثم تفرس فى وجه جوفان وسأله :
— لم اطلقت سرا راهبات دير (القديسة مارى) ؟

فأجاب جوفان : انا لا اشهر الحرب على النساء .
— هؤلاء النساء يمقتن الشعب .. والمراة الواحدة تفوق فى مقتها عشرة رجال .. لم رفضت ان تقدم الى « المحكمة الثورية » اولئك القسس الشيوخ المتعصبين الذين اسرتهم فى « لوفنيه » ؟
— لانى لا أشهر الحرب على الشيوخ .
— القس الشيخ اشد ضررا من القس الشاب .. ان ارباب الشعور البيضاء اقدر على اذكاء روح التمرد والعصيان . والناس ايمان اعمى بالشيوخ . لا نريد رحمة كاذبة يا جوفان .. ليكن نظرك دائما متجها الى سجن (التامبل) .
— سجن « التامبل » ! .. لو كان الامر بيدى لاطلقت سراح ولى العهد .. انا لا اشهر الحرب على الاطفال .

فقال سيموردان وقد بدت فى عينيه دلائل الصرامة ؟
— اعلم يا جوفان انه لابد من اشهار الحرب على المراة اذا كان اسمها مارى انطوانيت .. وعلى الشيخ اذا كان اسمه البابا بيوس السادس .. وعلى الطفل اذا كان اسمه لويس كابيه (ولى عهد فرنسا) .
— لست من رجال السياسة يا استاذى .
— هذا اتجاه خطر . لم امرت رجالك بفتح الصفوف امام الثائر جان تريتون فى موقعة (كاسبيه) حينما استحال عليه التقهقر وهجم عليهم شاهرا سيفه ، وقلت لهم : دعوه يمر ؟
— لانه لا يليق بالانسان أن يترك الفا وخمسمائة رجل يقتلون رجلا واحدا .

— لم لم تأمر باعدام الفلاحين الأسرى الثلاثمائة الذين أخذتهم بعد انتصارك فى موقعه (لانديان) ؟
— لان القائد الملكى بوشام عفا عن أسرى الجمهوريين . فأردت ان يقال ان الجمهورية تعفو عن اسرى الملكيين .
— وقياسا على هذا ستعفو عن لانتناك اذا اخذته اسيرا !
— لا .
— ولم لا ؟ . ما دمت عفوت عن الأسرى الفلاحين الثلاثمائة !
— ان الفلاحين قوم جهلاء . اما لانتناك فهو يعقل ما يفعل .
— لكن لانتناك قريبك ؟
— فرنسا اقرب الى منه .
— لانتناك كهل .
— لانتناك غريب ! . لانتناك لا عمر له ! . لانتناك يستجدى الانجليز ! . لانتناك يغزو وطنه ! . لانتناك عدو الوطن ! ان الصراع بينى وبينه لا يمكن أن ينتهى الا بالموت لاحدنا .
— تذكر هذا الوعد يا جوفان .
— هذا قسم عظيم .
— ساد الصمت بين الاثنين ، ثم قطعه سيموردان قائلا .
— كن على حذر يا جوفان . ان واجبات خطيرة تنتظرنا . ان عام ٩٣ هو ادق مرحلة فى تاريخ الثورة . واخطر ما يؤذى الجمهورية هو هذه الشفقة التى تحرص عليها .

فقال جوفان : انى احذرك بدورى كى لا توصم الجمهورية بالارهاب والطغيان . الحرية والمساواة والاخاء هى المبادىء الخالدة التى تقوم عليها الطمانينة ويستتب بها السلام . فلم نطبعها بطابع العنف والبطش ؟ لا يحتاج الانسان الى فعل الشر توسلا الى الخير . ولا يفسد مبادىء السلام والتسامح غير القسوة والتنكيل . لن اسفك الدماء الا معرضا صدرى فى الطليعة . وفوق هذا فانا جندى وحسب . لكنى اذا لم اتوسل بالعفو فالنصر عندى لا يساوى ثمنه . لنكن فى القتال اعداء اعدائنا ، اما بعد النصر فلنكن اخوانا .

فقال سيموردان : انى احذرك للمرة الثانية يا جوفان . فان لك فى نفسى أكثر من منزلة الابن .

ثم استطرد وهو يفكر : ان الشفقة فى العهد الحاضر قد تعد من قبيل الخيانة .

— ٨ —

ام هائمة

في هذه الاثناء كانت الأم لا تكل في البحث عن أبنائها . كانت تهيم على وجهها في كل مكان ، وتواصل الليل بالنهار في السعي والبحث ، ذاهلة عن نفسها . تستجدي المارة ، وتقتات بالاعشاب وتفترش الارض وتنام في العراء ، في الغابات وفي الحقول . تحت لفح الرياح ووابل المطر .

كانت تنتقل من قرية الى قرية باحثة عن اثر يرشدها الى اولادها .

كانت تقف عند ابواب الفلاحين ، فمنهم من يكرمها ، ومنهم من يقصيها ويطردها .

كانت تجهل كل شيء الا انها من مزرعة (سيسوانيار) في مقاطعة (بازى) .. ولم يكن يعرفها احد في الجهات التي سلكتها .

ثم تمزقت ثيابها حتى اصبحت أسمالا بالية .. وبلى حذاؤها وراحت تمشي حافية ، دامية القدمين . وكانت تحوطها المعارك المروعة والملاحم الدامية .. غير انها لم تحفل بهذا ، فقد كان تفكيرها منحصرا في شيء واحد .. هو أولادها .

كانت تستوقف المارة وتقول لهم : هل رايتم ثلاثة اطفال ؟ . ولدان وبنت ؟ . رينيه جان ، وآلين ، وجورجيت ؟ . الاكبر عمره أربع سنوات ونصف ، والصغرى عشرون شهرا .. هل تعرفون أين هم ؟ . انهم اخذوا مني بالقوة !

لكن الناس كانوا ينصتون اليها ، ثم يهزون رءوسهم ويسيرون صامتين .. اما هي فتقف جامدة في مكانها ، وتغرس أظفارها في صدرها وهي لا تنبس بكلمة .

على انها في احد الأيام صادفت فلاحا طيب القلب اصغى اليها . ولما سمع قصتها فكر قليلا ثم قال لها :

— انتظري .. اطفال ؟

— نعم .. ولدان وبنت .

— انى سمعت كلاما يدور عن سيد حمل معه ثلاثة اطفال وابقاهم عنده .

هتفت الأم : اين هذا الرجل ؟ اين هم ؟

فاجاب الفلاح : ذهب الى « لاتورج » .

— وهل اجد أولادي هناك ؟

— ربما تيسر ذلك .

— وما هو « لاتورج » هذا ؟

— هو مكان .

— هل هو قرية ؟ او حصن ؟ او مزرعة ؟

— لم اذهب اليه أبدا .

— هل هو بعيد ؟

— اعرف انه غير قريب .

— في اي اتجاه ؟

— في اتجاه غابة (فوجير) .

— وكيف أسير اليها ؟

فاشار الفلاح بذراعه الى ناحية الغرب واجابها :

— سيري الى الأمام رأسا .

وقبل ان يتم الفلاح كلماته اسرعت الام ركضا ، يهتف الرجل خلفها :

— حاذري ! . ان القتال دائر هناك .

لكنها لم تجب ، بل واصلت سيرها الى الامام .

— ٩ —

« حصن لاتورج »

على صخرة ضخمة قرب نهاية غابة (فوجير) شيد حصن (لاتورج) مقر اسرة جوفان التاريخي . وهو بناء شاهق مستدير مكون من ست طبقات ، يبلغ سمك جدرانه اربعة امتار ، ويمتد حول الصخرة القائم فوقها اخدود يجري فيه ماء احد الانهار شتاء ، ويجف صيفا .

ويجاور الحصن المذكور من الناحية الغربية هضبة مرتفعة تفصلها الاخدود عنه ، وبين الحصن والهضبة برج مستطيل قائم على اعمدة مرتفعة ترتكز قواعدها في بطن الاخدود ، وهو مكون من ثلاث طبقات : السفلى رواق مستطيل مقفل الجوانب يسمى غرفة الحراسة والوسطى غرفة للمكتبة بها المجلدات التاريخية ومستندات

الاسرة ، والعليا مخزن للحبوب .

ولكي يأمن اصحاب الحصن من فضول المغيرين عليهم عن طريق البرج ، أنشأوا بابا ثقيلا من الحديد في جدار الحصن يفصله عن البرج ، ولهذا الباب مفتاح كبير محجوب في مخبأ لا يعرف سره سوى صاحب الحصن .. وبذلك يتعين على من يريد الدخول الى الحصن ان يجتاز البرج اولا لـكى يصل الى الباب الحـديدى المذكور ، ثم ينفذ من هذا الباب لكي يدخل الى الحصن .. ولم يكن هناك غير هذا المدخل .

كان حصن « لاتورج » بالاجمال بناء شاهقا من ست طبقات ، له مدخل واحد هو الباب الحديدي الموضوع في وسط الجـدار الذي يبلغ سمكه أربعة امتار ، وهو يؤدي الى برج من ثلاث طبقات تعزله قنطرة متحركة ، ويجاور القصر من الخلف غابة « فوجير » ومن الامام هضبة أعلى من البرج نفسه وأقل ارتفاعا من الحصن ، وأسفل البرج أخدود ضيق عميق يجري فيه الماء شتاء .

— ١٠ —

الرهائن

جاء شهر اغسطس عام ٩٣ ، واصيبت ثورة « فنديه » بضربات متلاحقة من الجمهوريين ، وصدرت مراسيم من باريس بتكوين فرق من المتطوعين لاحراق الغابات وتدميرها .

في هذا الشهر وقع حصن « لاتورج » المشار اليه تحت حصار شديد ، وذات ليلة دوى في السكون السائد صوت نفير صادر من أعلى الحصن ، فجاوبه طبل من الاسفل .

كان في أعلى الحصن رجل مسلح ، أما حول قاعدته فقد انتشرت في الظلام قوات كثيرة العدد ملأت الغابة والهضبة واحاطت بالحصن احاطة السوار بالمعصم . كان الحصن محاصرا بجيش الجمهوريين .

ودوى صوت النفير ثانية من اعلى الحصن ، فتلته على الأثر دقات الطبل صادرة من أسفل الحصن .

كان الحصن يستفهم من المعسكر عما اذا كان ممكنه ان يتفاهم معه ، فجاوبه المعسكر بالايجاب ، ومعنى هذا أنه عقدت بين الطرفين هدنة موقوتة بضع دقائق .

قال الرجل الواقف في اعلى الحصن في صوت مرتفع كان يسمع بجلاء :

أيها الرجال ! .. انا ايمانوس الذي اعدمتم اباه وامه واخته بالمقصلة ، واني أخاطبكم باسم مولاى الماركيز دي لانتناك ، فيكونت دي فونتناى ، امير الغابات السبع ، فاندى العظيم .

اعلموا اولا ان مولاى الماركيز قبل ان يعتصم بهذا الحصن الذي تحاصرونه ، قد وزع قيادة الجيوش بين ستة من قواده ، فاذا استوليتم على هذا الحصن فلن تنتهي متاعبكم . واذا مات مولاى الماركيز وجدت ثورة « فنديه » من يذكيها ويحييها .

اني انذركم بهذا الكلام .. ومولاى الماركيز موجود الآن بجوارى .. وانا لسانه الناطق الذي ينقل اليكم ما يريد .. فاسمعوا الآن ما يريد .

لا تنسوا ان الحرب التي تشهرونها علينا هي حرب ظالمه .. نحن رجال مسالمون مقيمون في ارضنا .. وقد هاجمتنا الجمهورية في عقر دارنا .. فاحرقت بيوتنـا .. واتلفت زراعاتنا .. وشنقت نساءنا واطفالنا .

ايها الرجال ! .. حصرتمونا في هذا الحصن .. وقتلتم وفرقتم من كان معنا .. وانتم الآن اربعة آلاف وخمسمائه .. اما نحن فلا نزيد على تسعة عشر رجلا .

ان معكم الزاد والذخيرة .. وقد نجحتم في نسف جانب الصخرة واحدثتم فتحة في جدار الحصن يمكنكم الدخول منها . وان كان باقي الحصن مع ذلك منيعا .. وانتم الآن تستعدون لمهاجمتنا .

فاسمعوا الآن ما نريد ان نقوله لكم .

ان بين ايدينا ثلاثة اطفال اسرى . وهؤلاء الاطفال قد تبنتهم احدى فرق جيشكم ، وهم ينتمون اليكم ، ونحن الآن نعرض عليكم تسليم الأطفال الثلاثة ، بشرط واحد ، هو أن تدعونا نرحل من هنا .

فاذا رفضتم ، فافهموا جيدا ما سيجرى .

لن يمكنكم ان تهاجمونا الا من احد طريقين ، الاول من طريق الفتحة الكائنة عند طرف الغابة ، والثانى من طريق البرج المجاور للهضبة .

ان البرج مكون من ثلاث طبقات . وقد وضعت في الطابق الاول ستة براميل من القطران، وكمية كبيرة من الاعواد الجافة . وفي الطابق الاعلى يوجد قش كثير ، وفي الطـابق الاوسط كتب واوراق

متنوعة . والباب الحديدى الموصل بين البرج والحصن مقفل ، ومفتاحه فى جيب مولاى الماركيز . وقد أحدثت بيدى فتحه اسفل الباب المذكور ، يمتد من خلالها شريط كبريتى يصل احد طرفيه الى القطران ، وطرفه الآخر فى متناول يدى فى داخل الحصن . وفى وسعى ان اشعله حينما اشاء .

فان رفضتم ان تفرجوا عنا ، سنضع الاطفال الثلاثة فى الطابق الثانى من البرج ، بين الطابق الذى يوجد فيه شريط الكبريت المتصل بالقطران والطابق المملوء بالقش . ثم يغلق الباب الحديدى عليهم .

فاذا هاجمتمونا من ناحية البرج اضرمتم النار بأيديكم فى البناء . واذا هاجمتمونا من ناحية الفتحة اشعلنا نحن النار . واذا هجمتم من الناحيتين ستشعل النار بأيدينا معا . وفى جميع هذه الحالات هلاك الاطفال المحقق .

والآن ، لكم ان تقبلوا او ترفضوا .

فاذا قبلتم خرجنا .

واذا رفضتم هلك الأطفال .

هذا كل ما عندى .

انقطع صوت المتكلم من اعلى الحصن ، فارتفع صوت خشن صارم من الاسفل صائحا :

ـ اننا نرفض !

ثم تلاه صوت آخر قائلا :

ـ اننا نمهلكم اربعا وعشرين ساعة للتسليم ! . فاذا لم تسلموا غدا فى مثل هذه الساعة بدانا الهجوم !

وعلى اثر ذلك قال صاحب الصوت الصارم :

ـ وعند ذلك لن تروا منا اقل رحمة !

وما كاد المتكلم يسكت حتى اطل من اعلى الحصن وجه عرف الجميع فيه الماركيز دى لانتناك . وصاح قائلا :

ـ عرفتك ايها القسيس !

فاجاب صاحب الصوت الصارم :

ـ نعم . هو انا ايها الخائن !

كان صاحب الصوت الصارم هو سيموردان حقا . اما الآخر فكان جوفان .

والواقع انه لم تمض سوى بضعة أسابيع على وجود سيموردان

فى هذه المناطق حتى كانت قسوته مضرب الأمثال . وجرى اسمه مقرونا بالرعب على كل لسان .

عقدت هدنة موقوته بين الفريقين بفضل تدخل جوفان . وكان ايمانوس لم يتنكب الصواب . فبفضل الامدادات التى طلبها سيموردان استطاع جوفان ان يقف على رأس جيش مكون من اربعة الاف وخمسمائة من الجنود ، وان يحاصر لانتناك فى حصن (لانورج) . وكانت ترافقه مدفعيه نصب جانبا منها عند حافة الغابه فى مواجهة الحصن . والجانب الآخر فوق الهضبة امام البرج .

كما نجح فى نسف جزء من قاعدة الصخره واحداث فتحة فى اسفل الحصن .

كان رجل من أسرة جوفان يهاجم رجلا من اسره جوفان . واذا كان جوفان الشاب قد تباطا فى الهجوم بسبب تقديره لتاريخ الحصن فان لانتناك لم يهتم بهذه الحقيقة . فقد اقام شطرا كبيرا من حياته فى فرساى وهو لم يلجا اليه الا اضطرارا . أما جوفان فكان يعرف أن اضعف نقطة فى الحصن هى البرج . لكن فى هذا البرج غرفة المكتبة التى تضم تاريخ الأسرة ومخلفاتها المجيدة . فاذا هاجم الحصن من هذه الناحية عرض هذه المخلفات للحريق والتلف . وهى جريمة كان يستنكرها .. ولذلك انصرف عن مهاجمة الحصن من ناحية البرج ، واكتفى بوضع بطارية من المدافع فوق الهضبة المجاورة له تلافيا لفرار احد من المحصورين . ووجه همه الى مهاجمة الحصن راسا من ناحية الغابة . ومن هنا احدث تلك الفتحة المشار اليها فى أسفل الجدار .

اما سيموردان فقد استاء اولا من هذا التسامح الذى ابداه جوفان . وعد ابقاءه على البرج لونا من الضعف الذى كان يستنكره ويحذر جوفان من الاستسلام له .

لكنه لم يلبث أن تذكر انه تربطه كذلك بهذا المكان روابط تاريخية . فقد قضى شطرا من حياته فى تربية جوفان والاشراف على تهذيبه ، وكان قسا فى قرية باريجيه المجاورة . وفى غرفة المكتبة لقن جوفان دروسه الأولى ووالاه بالتثقيف حتى استوى شابا مكتمل العقل ، ناضج الذهن . ولذلك شارك جوفان فى الابقاء على البرج ومهاجمة الحصن من ناحية الفتحة ـ وان شعر مع ذلك بوخز الضمير لاستسلامه لهذا الضعف .

- ١١ -

استعداد ايمانوس

بينما كان الماركيز مهتما بالدفاع عن الحصن أخذ ايمانوس يشرفه على البرج .

كان للبرج سلم مدلى فوق الجدار من الطابق الثانى الى قاع الاخدود وهو احتياط رأى اصحاب الحصن اتخاذه لامكان الافلات من البرج فى حالة نشوب النار فيه . ولما عرف الماركيز بحصار الحصن امر برفع هذا السلم ووضعه ايمانوس فى غرفة المكتبة .

وكانت نوافذ الطابق الاول فى البرج ، وهو المعروف بغرفة الحراسة، مشبكة بالقضبان الحديدية الغليظة فى الجدار . اما نوافذ غرفة المكتبة فى الطابق الثانى فلم يكن بها قضبان ، غير انها كانت شديدة الارتفاع .

صحب ايمانوس ثلاثة رجال معه هم (اواسنار) والاخوان (بيكبوا) وهم رجال ذوو جلد وقوة ، وحمل مصباحا وفتح الباب الحديدى الموصل بين الحصن والبرج ، وشرع يتفقد طبقاته الثلاث .

طاف ايمانوس بالطابق العلوى للبرج ، وهو غرفة المخزن المملوءة بالقش ، ثم هبط الى الطابق الاول حيث توجد براميل القطران واعواد الحطب الجاف . فوضعها متلاصقة ، واطمان الى حالة الشريط الكبريتى الذى كان احد طرفيه فى هذه الغرفة وطرفه الآخر فى الحصن . ثم سكب فوق الحطب واسفل البراميل كمية من القطران وغمس نهايه الشريط فيه .

وحمل اخيرا الى الطابق الأوسط المكون من غرفة المكتبة وهى كائنة بين الطابق الارضى حيث يوجد القطران والطابق العلوى حيث يوجد القش ـ حمل الى هذه الغرفة الأسرة الثلاثة الصغيرة وفوقها الأطفال الثلاثة رينيه جان وآلين وجورجيت الذين كانوا مستسلمين للنوم .

وضع الاطفال بهدوء فى غرفة المكتبة امام السلم المرتكز الى الجدار ، وكان بجوار كل مهد اناء به حساء وملعقة خشبية . وفتح نوافذ الغرفة حتى يتجدد هواؤها ، ثم امر زملاءه بفتح نوافذ الغرفتين العليا والسفلى كذلك .

- ١٢ -

ملائكة ...

مضى الليل كله فى استعداد الجانبين لخوض معركة الغد .

وقد استيقظ الاطفال الثلاثة . وفتحت الطفلة الصغيرة عينيها اولا .

ان استيقاظ الاطفال كتفتح الأزهار فى أكمامها . ويكاد يحسب الانسان ان نسيما عطرا يفوح شذاه من هذه الارواح البريئة الغضة .

كانت جورجيت تناهز عشرين شهرا . وهى صغرى اخويها . وما لبثت ان رفعت رأسها . وجلست فى مهدها : ونظرت الى قدميها ، ثم اخذت تلغط فى شدو كتغريد الطيور .

كان اخواها نائمين كل فى مهده . وكان رينيه جان يبدو قوى البنية ، وتمدد على وجهه ووضع يديه تحت عينيه . اما آلين فانه ادنى ساقيه من فوق حافة المهد .

كان الاطفال الثلاثة يرتدون ملابس ممزقة باليه خلعها عليهم جنود (الفرقة الحمراء) . لكنها اصبحت بفعل الايام خيوطا لا تكاد تستر اجسامهم . ولم يكن هناك من يعنى بهم ويحنو عليهم . فقد كان الفلاحون القساة يجرونهم معهم من قرية الى قرية ومن غابة الى غابة . وكل ماكانوا يجودون به عليهم هو قليل من الحساء .

على انه برغم هذه الاسمال البالية التى تعلو الأطفال ، كانت تحوطهم هالة من النور . ومظهرهم يثير الحب والانعطاف .

استيقظ رينيه جان بعد جورجيت . وكان يتجاوز الرابعه من عمره . ولما رأى اناء الحساء بجانبه ، جلس فوق الارض . واخذ يتناول طعامه .

ثم استيقظ آلين على صوت الملعقة التى كان رينيه جان يدسها فى الاناء .. كان يناهز الثالثة من عمره . ولما رأى الاناء الخاص به بجانبه ، لم يكلف نفسه عناء النزول الى الارض ، بل مد يده الصغيرة وتناوله ، ووضعه فى حجره ، واخذ ياكل بدوره .

ولما رات جورجيت شقيقيها ياكلان ، كفت عن تغريدها الملائكى وتناولت الاناء الموضوع قرب مهدها ، واخذت تاكل . وكانت احيانا تدنى الملعقة من اذنها ، لا من فمها . واحيانا تنبذ وسائل المدنية ، وتاكل باصابعها الصغيرة .

وفجاة ، دوى من ناحية الغابة صوت طبل عال ، فاجابه صوت نفير من اعلى الحصن .

ثم ارتفع من ناحية الغابة صوت بعيد وصاح صاحبه :

— يا قطاع الطرق ! . هذا انذار لكم ! . اذا لم تسلموا عند غروب الشمس ، بدانا الهجوم !

فاجابه صوت كزئير اسد ضار صادر من أعلى :

— اهجموا !!

فاستانف صاحب الصوت السفلى كلامه :

— سنطلق مدفعا قبل الهجوم بنصف ساعة ، وهو آخر انذار لكم .

فردد صاحب الصوت العلوى كلمته :

— اهجموا !

لم تصل اصوات هذا الحديث الى آذان الاطفال . ولكنهم سمعوا صوت النفير والطبل بجلاء . فكفت جورجيت عن الاكل . واخذت تنصت باهتمام . وراحت ترفع وتخفض يدها الصغيرة وفاقا لتموجات صوت النفير . وشاعت فى ملامح وجهها ابتسامة ملائكية .

اما الطفلان الآخران فلم يكترثا بهذا الصوت . بل نهضا وراحا يتنقلان فى أرجاء الغرفة ، باحثين ، مستطلعين فى فضول الاطفال المعروف .

فرغت جورجيت من طعامها . والقت الاناء والملعقة جانبا . ولما رات شقيقيها منهمكين فى اللعب والعبث ، هبطت من فوق المهد الصغير . واخذت تحبو على اربع . وانضمت اليهما .

وفجاة بينما كان رينيه جان يلعب قرب احدى النوافذ رفع راسه ، ثم أسرع الى أحد الاركان واختبا . فقد راى رجلا ينظر اليه .

كان احد جنود الزرق المرابطين فوق الهضبة . وقد انتهز فرصة الهدنة الموقوتة وتسال الى حافة المنحدر الذى يشرف على داخل غرفة المكتبة التى وضع الاطفال بها . وارسل نظرة .

وما كاد آلين يرى شقيقه يختبىء ، حتى اسرع الى الاختباء بجواره واسرعت جورجيت بدورها الى الاختباء خلف الاثنين . وبقى الثلاثة فى مكانهم صامتين ، ووضعت جورجيت اصبعها على فمها .

تشجع رينيه جان بعد قليل ورفع راسه ونظر امامه . فوجد

الجندى باقيا فى مكانه . فتراجع بسرعه . وتلاصق الاخوه الثلاثه وقد ...سوا انفاسهم .

...ضت بضع دقائق .. وسئمت جورجيت هذا الموقف .. فاستجمعت شجاعتها واطلت براسها الى ناحية النافذة .. لكن الجندى اختفى .. وسرعان ما خرج الثلاثة من مخبئهم ، وعادوا الى سابق مرحهم واخذوا يعبثون ويلعبون .

...م جاء المساء ، واشتدت الحرارة ، وتثاقل جفنا جورجيت ... ...ب رينيه جان الى سريره الصغير ، وحمل كيس القش الذى فوقه ...جره الى النافذة ، وتمدد فوقه قائلا :

— جاء وقت النوم .

اسند آلين راسه الى رينيه جان وتمدد بجواره ، ووضعت ...رجيت راسها فوق آلين .. واستسلم الثلاثة للنوم .

انحدرت الشمس فوق الافق ولامست حافته .. وساد سكون ...ب يملأ النفوس راحة وطمانينة .. وتجمع هؤلاء الاطفال الثلاثة ... واحدة نصف عارية كانهم صور من (كيوبيد) .

كانوا صورة مجسمة للنقاء والطهارة .. ولم تتجاوز اعمارهم ...مجمعة تسعة أعوام .. وكانت الابتسامات العذبة المنطبعة على ...شفاههم صدى للأحلام السماوية التى يسبحون فيها .. وربما كانت ...الملائكة فى هذا الوقت تهمس فى آذانهم .

وفجاة عكر السكون دوى هائل صدر من ناحية الغابة .. هو ...صف مدفع .. وتجاوبت اصداؤه فى تموجات جهنمية تبعث الرهبة ...فى النفوس .

استيقظت جورجيت على هذا الصوت . ورفعت راسها قليلا ، غمغمت : بوم !

تلاشى الصوت . وساد السكون .. ثم توسدت جورجيت صدر ...آلين ، واستانفت رقادها الهنىء .

الفصل التاسع

الأم

- ١ -

شبح الموت

في فجر هذا اليوم كانت الام التي شاهدناها هائمة على وجهها في الفصول السابقة سعيا وراء اطفالها ـ كانت تسير الى الامام ، متجهة الى الغرب ، كما اوصاها الفلاح ، تردد بين حين وآخر كلمة واحدة : « لانورج » وكانت هذه الكلمة هي كل ما تعرفه ، فيما عدا اسماء اولادها ..

كانت تسير ذاهلة حالمة .. لا تحفل بشيء حولها .. ولا تفكر الا في اطفالها .

وصلت الى قرية في طريقها .. وكان الفجر قد بزغ . واخـذت خيوطه تبدد غياهب الظلام .. ورأت بعض الحوانيت مفتوحة في طرقات القرية الرئيسية .. والناس يطلون من نوافذهم مستطلعين .. لقد سمعوا دوى عجلات مركبة . وصليل سلاسل .

وفي ميدان الكنيسة وقف جمع من اهل القرية تعلوهم مظـاهر الخوف ورفعوا رءوسهم وجعلوا يراقبون شيئا ينحدر فوق سفح التل القريب ، ويدنو من القرية .

كانت مركبة ذات اربع عجلات تجرها خمسة جياد تتدلى منها السلاسل وفوقها جسم غير محدد الشكل ، ويعلوه غطاء من القماش السميك كأنه غطاء نعش وكان يتقدم المركبة عشرة فرسان ويسير مثلهم في أثرها ، تغطى رءوسهم قبعات تعلوها شارات مثلثة الألوان وتبدو من فوق رءوسهم اطراف سيوف مجردة .

كان هذا الموكب يتقدم ببطء ، وهو يبدو للعين مجللا بالسواد في ضوء الفجر الباهت .

انتشر ضوء الصباح بينما كان الموكب ينحـــدر فوق التل .. وميزت العين اطراف الموكب .. فكان الفرســان فرقة من الجنود [illegible]رة سيوفها ، وكانت المركبة سوداء اللون .

وصلت الأم البائسة الى القرية من الناحية المقابلة .. وانضمت الى جمع الفلاحين عند مرور المركبة والجنود في الميدان .. وراح الفلاحون يتبادلون الاسئلة والاجوبة : فقال احدهم :

ـ ما هذا ؟

ـ المفصلة .

ـ من اين جاءت .

ـ من فوجيه ؟

ـ والى اين تذهب ؟

ـ لا اعرف . يقال انها ذاهبة الى حصن بجوار « باريجية » .

ـ لتذهب الى حيث تشاء بشرط الا تقف هنا .

اخترق هذا الموكب الرهيب ميدان القرية وجاوزها .

كانت القرية كائنة في سهل منخفض بين تلين . وبعـد ربع ساعة شاهد الفلاحون المروعون ذلك الموكب يظهر ثانية فوق سفح التل المقابل . ثم انعطف الطريق واختفى شبح الموت عن انظارهم .

وفي نفس هذا الوقت كانت جورجيت قد استيقظت مع شقيقها كما مر في الفصل السابق : واخذوا يتناولون طعامهم .

- ٢ -

نذير الموت

راقبت الام هذا المشهد دون ان تفقه منه شيئا أو تحاول ان تفهم . فقد كان تفكيرها منحصرا في أولادها .

ولم تلبث ان غادرت القرية وسارت في اثر الموكب المتجه الى الغرب : مبتعدة عنه بمسافة .

وفجأة عادت الى ذاكرتها كلمة « المفصلة » التي سمعتها . فرددتها على لسانها وهي ترتعد .

كانت هذه الفلاحة البائسة لا تفهم معنى هذه الكلمة . لكن الغريزة اوحت اليهـا انها شيء مخوف مرهوب . فسرت في كيانها قشعريرة دون أن تفهم السبب . وارتاعت من السير خلفهـــا .

وانحرفت الى اليسار مبتعده من طريقها ، ودخلت فى غابة ، هى غابة « فوجير » .

ولما قطعت مرحلة كبيرة لمحت عن بعد سقوفا وقبة عالية بهــا ناقوس ، كانت احدى القرى المتناثرة على حدود الغــابة المترامية الاطراف ، ولما احــست بالجوع اتجهت اليها .

كانت هذه القرية احدى القرى التى استولى عليها الجمهوريون ووضعوا فيها حرسا من رجالهم .

قصدت الام الى ميدان القرية .. وشاهدت امام دار العمدة جمعا من الناس وقفوا أسفل درجات المدخل ، بينا وقف فى أعلى الدرج رجل يحمل بيده اعلانا كبيرا منشورا ، وقد انتصب عن يمينه جندى يحمل طبلا ، وعن يساره رجل بيده دلو وفرشاة .

وفى الشرفة المطلة على الباب وقف العمــدة حاملا وشاحا مثلث الالوان .

كان حامل الاعلان أحد المنادين الذين يطوفون بالقرى ، وكان يحمل فوق كتفه حزاما تتدلى منه حقيبة صغيرة .

دنت ميشيل كليشار من هذا الجمع وقت ان بسط المنــادى الاعلان وراح يتلو مافيه بصوت مرتفع :

« الجمهورية الفرنسية وحدة لا تتجزأ » .

رن الطبل .. نحدث لغط بين الجمهور .. ورفع بعضهم قلانسه .. وارخى آخرون قبعاتهم فوق رءوسهم .. كان هؤلاء من الملكيين .. وأولئك من الجمهوريين .. ثم ســكنت الاصوات .. واصغى الجميع وتلا المنادى :

« بناء على ما تلقيناه من الاوامر ، واستنادا الى السلطة المخولة لنا من « لجنة الامن العام » .

« وتطبيقا لقانون « مجلس الأمة » الذى يعتبر جميــع العصاة الذين يقبض عليهم مسلحين ، خارجين على القانون ، والذى ينص على انزال العقاب الصارم بكل من يؤويهم أو يساعدهم على الفرار .

« واستنادا الى المادة السابعة عشرة من القانون الصادر فى الثلاثين من بريل الذى يفوض المنــدوبين ووكلاءهم تعويضا تاما ضــد الثائرين .

« يعد خارجا على القانون كل من الاشخاص الواردة اسماؤهم والقابهم فيما يلى :

« لانتناك ، ماركيز سابقا . قاطع طريق حاليا » .
غمغم احد الفلاحين حينما سمع هذا الاسم : هذا مولاى !
وترددت هذه الكلمات على السنة الفلاحين جميعا .
استأنف المنادى تلاوته لاسماء ثمانية عشر آخرين وصفهم بانهم قطاع طريق .
ثم استأنف المنادى تلاوته :
« وكل من يقبض عليه من المذكورين اعلاه سيعدم فى الحال » .
حدث لغط بين الجمهور . ثم استطرد المنادى :
« وكل من يؤويهم أو يسهل لهم الفرار سيقدم أمام المحكمة العسكرية ويحكم عليه بالاعدام . الامضاء مندوب لجنة الأمن العام . سيموردان » .
قال احد الفلاحين : هو قسيس .
وقال آخر : هو القس السابق فى قرية (باريجيه) .
ورفع العمدة قبعته وهو واقف فى الشرفة ، وهتف :
ــ لتحيا الجمهورية !
اشار المنادى بيده ، ودق الطبل ، وقال :
ــ انتبهوا ! . اسمعوا امر القائد جوفان قائد جيوش السواحل الشمالية :
« ممنوع منعا باتا تطبيقا للأمر الصادر اعلاه تقديم اية مساعدة الى الثائرين المذكورين : وهم محــاصرون فى الوقت الحالى فى حصن (لاتورج) . وكل من يرتكب هذه المخالفة يعاقب بالاعدام » .
هتف صوت حينما سمع هذا الكلام :
ــ لاتورج ؟
كان المتكلم ميشيل فليشار . الأم .

ــ ٣ ــ

حديث الفلاحين

اختلطت ميشيل فليشار بالجمهور . ولم تكن تصغى الى شيء معين . غير انها ما كادت تسمع اسم (لاتورج) حتى رفعت رأسها ورددت كلمتها :
ــ لاتورج .. ؟

تطلعت الأنظار اليها .. كانت تبدو فى اسمال بالية وكانها مجنونة .
غمغم بعضهم :
– هى تبدو كانها من قطاع الطرق !
دنت منها فلاحة حاملة سلة بها بعض الخبز الاسمر ، وقالت لهـا :
– امسكى لسانك !
حدقت اليهـا ميشيل فليشار ببلادة .. كان من حقهـا ان تسال . ولم تفهم موجبا لهذه النظرات التى صوبت اليها .
رن الطبل للمرة الأخيرة . والصق حامل الدلو الاعلان . وانسحب العمدة الى داخل بيته . وانصرف المنادى الى قرية اخرى . وتفرق الجمهور .
تلكا بعض الأفراد قرب الاعلان .. وراحوا يعـلقون بمختلف الاحاديث على الاسـماء الواردة فى الاعلان . وكان منهم البيض والزرق .
قال فلاح : مهما يكن فهم لم يقبضوا على الجميع . وهناك زعماء آخرون يقودون الجيوش .
فاعترضه كهل ابيض الشعر صارم النظرات قائلا :
– يا لك من ابله ! . اذا اخذوا لانتناك اخذوا الكل .
فغمغم احد الشبان :
– لكنهم لم ياخذوه بعد .
واستطرد الكهل :
– اذا اخـذ لانتناك نزعت الروح . اذا مات لانتناك ذبحت (فنديه) .
وقال احد الزرق :
– من هو لانتناك هذا ؟
فاجابته امراة من عقيدته :
– هو نبيل سابق .
وقال آخر : هو احد الذين يعدمون النساء .
سمعت ميشيل فليشار هذه الكلمات ، فقالت : هذا صحيح .
التفتوا اليها ، فاستطردت : لانه اطلق الرصاص على ، وكاد يعدمنى .
نظر اليها المتكلمون بارتياب . وقال احد الفلاحين :
– قد تكون جاسوسة .

ممست الفلاحه التى خاطبتها من قبل :
– امسكى لسانك وابتعدى من هنا .
فاجابت فليشار : لا افعل شرا .. انى ابحث من اطفالى !
نظرت الفلاحة الطيبة القلب الى الوجوه التى كانت تحدق فى الام البائسه ، ومست جبينها باصبعها ، وقالت وهى تغمز باحدى عينيها :
– هى بلهاء .
ثم انتحت بها جانبا وقدمت لها لقمة .. فراحت ميشيل فليشار تلتهمها بشراهة دون أن تشكر الفلاحة . بينا قال احدهم :
– نعم .. ! هى تأكل كالحيوان .. ! هى بلهاء .. !
ثم تفرق الباقون وانصرفوا واحدا فى اثر الآخر .
ما كادت ميشيل فليشار تلتهم لقمتها حتى التفتت الى الفلاحة وقالت لها : اين حصن لاتورج . ارجو أن تساعدنى فى ايجاد اطفالى . انى لا انتمى الى هذه الجهات . انى اعدمت . لكن لا اعرف اين ...
هزت الفلاحة راسها وقالت : اسمعى . فى اوقات الثورة يجب الا تتكلمى كلاما غير مفهوم . قد يقبض عليك لهذا السبب .
فهتفت الام : لكن (لاتورج) ! أتوسل اليك يا سيدتى ان ترشدينى الى الطريق الموصل الى (لاتورج) .
قالت الفلاحة منفعلة : لا اعرف . ولو عرفت لما قلت . هو مكان خطير . والناس يتحاشونه .
– لابد من ذهابى الى لاتورج .. ! ارينى الطريق الى (لاتورج) .
فقالت الفلاحة ابدا .. ! هل تريدين ان تقتلى ! على انى لا أعرف المكان ! .. والآن .. انظرى الى .. انت مختلة الشعور . ! اصغى الى يا مسكينة .. ! انت منهوكة القوى .. هل تاتين الى بيتى وتستريحى قليلا .. ؟
فقالت الام : انا لا اذوق طعم الراحة .
غمغمت الفلاحة : ان قدميك تشققتا !
استطردت ميشيل فليشار : الم اقل لك انهم سرقوا اطفالى ؟ هم طفلة صـغيرة وولدان .. انى جئت من تجويف الشجرة فى الغابة .. سلى تلمارش المتسول عن ذلك .. ان تلمارش شفانى .. كان بجسمى كسر . هذا كل ما حدث لى .. وهناك الجاويش رادوب .. يمكنك سؤاله . ثلاثة ! نعم ثلاثة اطفال ! . ان زوجى توفى . قتلوه ! كان مزارعا فى (سيسوانيار) يظهر انك امراة طيبة .

اريني الطريق . لست مجنونة . انا ام ! . فقدت اطفالي . وانا ابحث منهم . اريد ان اذهب الى (لاتورج) .

هزت الفلاحة راسها وقررت انها لا تعرف المكان وقدمت اليها رغيفا قائلة :

ــ هذا لعشائك .

تناولت ميشيل فليشار الرغيف الاسمر دون ان تجيب او تلتفت . بل استمرت في سيرها الى الامام .

خرجت من القرية . وفيما هي تمر بالبيوت القائمة في اطرافها صادفت ثلاثة اطفال حفاة الاقدام ممزقي الثياب .

فدنت منهم ولما تبينتهم قالت : هم بنتان وولد .

ولما راتهم ينظرون الى الرغيف اعطته لهم .

تناول الاطفال الرغيف . ثم فزعوا منها . اما هي فاندست في الغابة .

ــ ٤ ــ

صوت

حينما تخلت ميشيل فليشار لاطفال القرية من رغيفها . راحت تهيم على وجهها في الغابة في غير وجهة معينة .

سارت طوال النهار دون ان تصادف في طريقها قرية اخرى او بيتا واحدا . فاستولى عليها تعب قاتل واعياء مضن . واحست بانها لا تكاد تقوى على رفع قدميها والتقدم خطوة اخرى . وخيل اليها انها توشك ان تسقط صريعة .

كانت الشمس تنحدر الى المغيب . وخيم الظلام على الغابة . ولم تعد تهتدي الى طريق تسلكه .

تطلعت حولها يائسة .. فرات فرجة بين الاغصان ... ولما تحاملت على نفسها واتجهت الى ناحية الفتحة الفت نفسها عند نهاية الغابة .

رات امامها واديا ضيقا يجري فيه جدول صغير .. ولما احست بالظما يلهب حلقها هبطت الى الجدول وركعت بقربه وشربت منه ، حتى اذا ارتوت رفعت راسها الى السماء واخذت تصلي .

نهضت من مكانها واجتازت الجدول .

كانت تمتد من هذا الوادي هضبة تتصل بالافق ، تبدو الاشجار القصيرة فوق سفحها المنحدر .

كانت الغابة منعزلة .. اما الهضبة فهي صحراء مقفرة لا اثر بها لمخلوق .

وقفت الام المنكودة في مكانها وهي تحس بان ساقيها تتخاذلان تحتها .. وما لبثت ان صاحت فجاة كانما استولت عليها نوبة جنون .

ــ الا يوجد احد هنا ؟

ترقبت الجواب .. وفعلا جاء الجواب المنتظر .. فقد صدر من ناحية الافق صوت عميق خافت متموج حملت الريح صداه من مكان الى مكان ، وكانه هزيم الرعد او قصف المدفع .. وكانه يجيب على سؤال الام بهذه الكلمة : نعم ..

ثم ساد السكون المطبق .

شربت الام ورددت صلاتها ، فاحست بقواها تتجدد .. وخيل اليها انها واجدة في هذا الصوت من تكلمة .. فاستجمعت قواها المكدودة ، واخذت ترتقي الهضبة متجهة الى ناحية الصوت .

وفجاة لمحت حصنا شاهقا يبرز عند نهاية الافق ، وقد ضرجته اشعة الشمس الغاربة بلون ارجواني .. اما خلف الحصن فقد امتدت ارض تتناثر فيها الخضرة .. هي غابة فوجير .

ولم تملك ميشيل فليشار الا ان تسير الى ناحية الحصن الذي خيل اليها ان الصوت الذي سمعته وانست فيه الجواب على سؤالها قد صدر منه .

ــ ٥ ــ

موقف المحاربين

تحقق امل سيموردان .. ووقع لانتاك في قبضة يده .

اخذ الاسد في عرينه .. ومن الجلي انه لن يتمكن من الافلات ..

واعتزم سيموردان ان يطيح براس الماركيز ويفصله عن جسده في نفس المكان الذي نشأ فيه وشهد مجده وسطوته ، حتى يكون عبرة خالدة ومثلا على الدهر باقيا .

ولهـــذا السبب ارسل الى (فوجير) فى طلب المقصلة التى شاهدناها فى طريقها الى الحصن .

ان القضاء على لانتناك هو القضاء على ثورة (فنديه) .. وفى اخماد هذه الثورة انقاذ فرنسا .. ولذلك لم يتردد سيموردان ، واحس براحة فى ضميره .. كان يغريه بالقسوة والصرامة احساسه بالواجب .

على ان هناك شيئا واحدا كان يكدر سيموردان ويقلقه .. فقد توقع ان يكون الصراع رهيبا ، سوف يساهم فيه جوفان الباسل بأوفى نصيب ، وقد يلقى فى هذا السبيل حتفه ، وهو المخلوق الوحيد الذى يحبه سيموردان فى هذه الدنيا وينزله من قلبه منزلة الابن ..

ارتعد سيموردان ازاء هذا الخاطر .. كانت الاقدار قد وضعته فى موقف غريب بين سليلى اسرة جوفان .. فهو يتمنى لأحدهما الموت .. ويريد للثانى الحياة !

كان المدفع الذى أيقظ جورجيت فى مهدها ، واستدرج الام الى ناحية الحصن ، قد اريد به انذار المحصورين باقتراب الهجوم . على انه تجاوز هذه الغاية ، سواء عفوا او عمدا ، واصاب الحاجز الحديدى الذى يحمى نافذة الحصن فى الطابق الأول ، وحطمه ، وبقيت اجزاؤه مدلاة ، لكن المحصورين لم يجدوا وقتا لاصلاحه .

كان المحصورون معتزين بموقفهم ، لكنه كان موقفا عصيبا ، فقد كانت ذخيرتهم محدودة ، ولم تتوافر لهم من الرصاص ما يستطيعون به ان يديروا دفة المعركة زمنا طويلا وان يصمدوا لمهاجميهم . واقتصر املهم الوحيد فى الاشتباك مع اعدائهم بالسيوف والخناجر .

وما كاد المدفع يطلق حتى وقفوا على قدم الاستعداد . ولم يبق امامهم سوى نصف ساعة يدور القتال بعده .

ووقف ايمانوس فوق قمة الحصن يرقب زحف المحاصرين . وامر لانتناك رجاله الا يطلقوا النار عليهم حالما يهجمون ، وقال لهم فى هذا الصدد :

ـ هم اربعة آلاف وخمسمائة . ومن العبث ان نحاول قتلهم فى الخارج . اما اذا شرعوا فى الدخول ، فنحن واياهم متساوون فى القــوة .

ثم ضحك واردف : مساواة ! . واخاء !

واتفقوا ان ينذرهم ايمانوس من فوق قمـــه الحصن عند زحف المحاصرين بالنفخ فى بوقه .

ووقف المدافعــون خلف الاستحكامات وفــوق درجات السلم . حاملين بنادقهم فى يد ومسابحهم فى اليد الاخرى .

كان الموقف يلخص فى هذه الكلمات :

امام المهاجمين فتحة يرتقونها . واستحكامات يجاوزونها . وثلاث قاعات قائمه بعضها فوق بعض يقتحمونها . وسلم لولبى يرتقون درجاته واحدة واحدة تحت وابل من الرصاص .

اما المحصورون فلم يكن امامهم غير الموت .

ـ ٦ ـ

تمهيدات

نظم جوفان من ناحيته وسائل الهجوم . فأعطى تعليماته الاخيرة الى سيموردان الذى قـــرر ان يتـــولى حراسة الهضـــبة . والى جيشام الذى يبقى مع اغلب الجيش فى معسكر الغابة . كما تقرر الا تطلق المدافع من ناحية الغابة أو من ناحية الهضبة الا اذا بدا المحصورون بالهجوم أو حاولوا الافلات . واستبقى جوفان لنفسه فرقة الهجوم التى اعتزم أن يقتحم الحصن على راسها . وهـــذا ما كان يزعج سيموردان ويثير قلقه .

ادرك جوفان ان من العبث محاولة اقتحام الحصن بالمدافع وهو ذلك البناء المنيع الذى يبلغ سمك جدرانه اربعة امتار . ولم يكن امامه الا ان يزحف عليه برجاله ويلتحموا مع المحصورين وجهـــا لوجه بالسيــوف والخناجر والايدى والأسنان ، ويزحزحهم خطوة خطوة . وشبرا شبرا . صحيح ان هـــذا قتال مروع . واشتباك مخيف . لكنه الطريق الوحيد .

وبينما كان جوفان يفكر راى الجاويش رادوب واقفا خلفه خافض البصر ، فقال جوفان : ماذا تريد يا رادوب ؟

ـ ايها المواطن القائد .. ان للفرقه الحمراء التماسا تريد ان تتقدم به .

ـ ما هو ؟

ـ نريد ان نموت .

ـ آه !
ـ هل يتحقق هذا الرجاء ؟
فقال جوفان : سيكون هذا مرهونا بالظروف .
ـ اصغ الى يا سيدى القائد .. انت تحافظ علينا منذ موقعة (دول) ولا يزال عددنا اثنى عشر كما كان .
ـ طيب !
ـ فى هذا مذلة لنا .
ـ انى ابقيكم فى صفوف الاحتياطى .
ـ بل نفضل ان نكون فى الطليعة .
ـ لكننى ابقيكم للاستعانة بكم عند توجيه الضربة القاضيه فى ختام المعركة .
ـ هنيا كثير .
ـ لا .. انتم فى الصفوف .. وستسيرون مع الآخرين .
ـ سنسير فى المؤخرة .. ان لباريس الحق فى ان تسير فى الطليعة .
ـ سافكر فى هذا يا رادوب .
ـ فكر اليوم ايها القائد .. هذه فرصة سانحة .. سيدور القتال مروعا عنيفا .. ان (لاتورج) ستكوى بنارها من يدنون منها .. نريد ان يكون لنا فى هذا الشان سهم وافر .

توقف الجاويش عن الكلام ، وراح يفتل شاربه ، ثم استطرد فى صوت مختلف : ثم هناك مسالة اخرى يا سيدى القائد .. فان اطفالنا موجودون فى الحصن .. اى ابناء الفرقة الحمراء الثلاثة .. وقد توعدنا ايمانوس المتوحش بايذائهم .. هؤلاء الاطفال أعزاء علينا يا سيدى القائد .. ولا يمكن أن نصبر على اى مكروه يحل بهم حتى لو زلزلت الدنيا وخرب العالم .. ومنذ قليل انتهزت فرصة الهدنة وارتقيت الهضبة والقيت نظرة عليهم من النافذة .. نعم .. هم هناك فى الواقع .. ويمكنك رؤيتهم من فوق سفح الاخدود .. وقد رايتهم بعينى راسى وخافوا منى .

اقسم لك يا سيدى القائد انه اذا سقطت شعرة واحدة من رءوسهم فسيكون ثارنا هائلا مخيفا .. وجميع افراد الفرقة يرددون هذا القول معى .. اما ان ينقذ الاطفال او نموت .. هذا من حقنا يا سيدى القائد .. نريد ان نموت ..

ثم حيا رادوب تحية عسكريه ، فمد جوفان يد وقال له :

ـ انت رجل باسل .. سيكون لكم نصيب فى حرب الهجوم .. ساجعلكم قسمين .. ستة رجال فى الطليعة للتاكد من التقدم ، وستة فى المؤخرة لضمان عدم التقهقر .
ـ هل اقود زملائى الاثنى عشر كالمعتاد ؟
ـ بلا ريب .
ـ شكرا لك يا سيدى القائد ، لانى ساكون من جنود المقدمه .

حيا رادوب قائده مرة ثانية تحية عسكرية ، وذهب الى رجال فرقته .

اما جوفان فقد نظر الى ساعته وهمس بضع كلمات فى اذن جيشام ، وعلى اثر ذلك اخذت فرقة الهجوم فى الانتظام .

ـ ٧ ـ

العرض الأخير

لم يكن سيموردان قد ذهب بعد الى مقره فوق الهضبة فقصد الى أحد جنود الطبول وقال له : اتصل بالحصن .

رن الطبل .. فأجابه البوق من اعلى .

ولما سمع جوفان ذلك قال لجيشام :
ـ ما معنى هذا ؟ وماذا يريد سيموردان ؟

تقدم سيموردان الى ناحية الحصن حاملا بيده منديلا ابيض .. وصاح فى صوت مرتفع : يا من فى الحصن ! هل تعرفوننى ؟

فأجاب ايمانوس من اعلى : نعم !
ـ انا رسول الجمهورية !
ـ انت الواعظ السابق فى قرية (باريجيه) .
ـ انا مندوب لجنة الامن العام .
ـ انت قس .
ـ انا ممثل القانون .
ـ انت مارق خائن .
ـ انا مبعوث الثورة .
ـ انت جاحد ملعون .
ـ انا سيموردان .
ـ انت الشيطان .

— هل تعرفوننى ؟
— نحن نمقتك .
— هل يرضيكم ان اقع فى ايديكم ؟
— نحن هنا ثمانية عشر رجلا .. ونحن ننزل عن رؤوسنا مختارين لاخذ راسك .
— بديع .. انى جئت لتسليم نفسى اليكم .
دوت ضحكة وحشية من اعلى الحصن ، وتلتها صرخة تمثلت فى هذه الكلمة : تعال !
كتم المعسكر انفاسه ، واستطرد سيموردان : بشرط واحد .
— ما هو ؟
— اسمعوا .
— تكلم .
— انتم تمقتوننى ؟
— نعم .
— وانا احبكم .. انا اخوكم .
— نعم .. كما احب قابيل اخاه .
فاستطرد سيموردان فى صوت غريب .. اشتمونى . لـــكن اصغوا الى . انى جئتكم حاملا راية السلام .. نعم .. انتم اخوانى .. انتم مساكين مخطئون . انى لكم صديق امين . انا النور . اخاطب الجهل والظلام . والنور ابدا هو الاخاء والولاء . اليس لنا جميعا ام واحدة ؟ . هى فرنسا وطننا ؟ اصغوا الى . ستعلمون فيما بعد . او سيعلم ابناؤكم او احفادكم من بعدكم ، ان ما يحدث الآن انما يجرى بارادة الله ، وان الثورة كانت امرا مقدورا . وحتى يتلاشى التعصب وفساد الراى من رءوسكم ورءوس غيركم ، وحتى يعم النور ويغمر كافة النفوس ، حتى يحين هذا كله ويتحقق ، أليس فيكم من يرثى لما تتخبطون فيه من الجهل والظلام ؟ انى جئتكم اقدم اليكم رأسى . بل انى افعل اكثر من هذا . انى اتوسل اليكم ان تمحقونى لانقاذ انفسكم . انى املك سلطة مطلقة . وما اقوله اقوى على تنفيذه . هذه لحظة رهيبة . انى اعرض عليكم عرضا اخيرا .. نعم . ان المواطن يتحداكم .. لكن القس يبتهل اليكم ان اصغوا الى . ان بينكم كثيرين لهم زوجات وابناء . انى ادافع عن زوجاتكم وابنائكم . ادافع عنهم ضدكم . يا اخوانى .
فقال ايمانوس ساخرا : استمر . اخطب !

— يا اخوانى .. لا تدعوا بوق الحـرب يدوى فوق الروابى . ستذبح رقاب وتراق دماء . ان كثيرين ممن يرونهم [illegible] شمس الغد . نعم . ان كثيرين منا سيلقون حتفهم .. وانتم انتم هالكون .. ارحموا انفسكم . لم يريقون [illegible] هذه الدماء فى غير نفع ولا طائل ؟ . لم تقضون على كل هذا العدد الكبير .. ما دام يكفى ان تقضوا فقط على اثنين .
— من هما ؟
— لانتناك وانا .
ثم استطرد سيموردان بصوت اكثر ارتفاعا :
— ان اثنين بآلاف . لانتناك لنا . وانا لكم . هذا هو اقتراحى الذى أعرضه عليكم . وبه تنقذون حياتكم جميعا . اعطونا لانتناك وخذونى . وسيعدم لانتناك بالمقصلة . وتفعلون بى ما تشاءون .
فصرخ ايمانوس : ايها القسيس .. لو وضعنا ايدينا عليك لشويناك على نار بطيئة .
فقال سيموردان : موافق .
ثم استطرد : ايها المحكوم عليكم بالفناء ! .. يمكنكم جميعا فى ظرف ساعة ان تعيشوا وان تتحرروا .. انى اهبكم الحرية والسلامة . فهل تقبلون ؟
انفجر ايمانوس صائحا : انت شقى ! . انت مجنون ! . لم جئت الآن لازعاجنا ؟ . من سألك ان تأتى وتكلمنا ؟ هل تريد ان نعطيك سيدنا ومولانا ؟ . ماذا تريد منه ؟
— انى اريد راسه . واقدم اليكم ...
— جلدك ! كم نود ان نسلخك كالكلب أيها القس سيموردان ! لا . ان جلدك لا يساوى راسه . اذهب عنا .
— ستكون مجزرة بشعة رهيبة . فكروا فى الامر لآخر مرة .
كان الليل قد أرخى سدوله اثناء هذا الحوار الغريب الذى كان يسمع فى خارج الحصن وفى داخله . ولم يخاطب ايمانوس سيموردان بعد ذلك ، بل صاح بأعلى صوته :
— ايها المهاجمون ! . اننا عرضنا عليكم شروطنا . فاقبلوها . والا فالويل لنا جميعا . هل تقبلون ؟ سنسلمكم الاطفال الثلاثة . وتمنحوننا جميعا الحرية والحياة .
فاجاب سيموردان : لكم جميعا . ما عدا لانتناك .
— ابدا !

— لا نفاوضكم الا تحت هذا الشرط .
— اذن ابداوا هجومكم .

ساد السكون . ونفخ ايمانوس فى البوق . ثم هبط الى اسفل الحصن . اشهر الماركيز لانتناك سيفه . وركع المحصورون التسعة عشر فوق ارض الطابق السفلى خلف الاستحكامات . ووصل الى سمعهم صوت المهاجمين وهم يتقدمون الى الحصن فى سكون رهيب .

زاد الصوت وضوحا . ثم سمعوه عن كثب منهم ، عند فوهة الفتحة . وفى اللحظة التالية سدد الجميع بنادقهم خلال الاستحكامات .

ثم اطلق الجميع بنادقهم مرة واحدة . وبدات المعركة .

— ٨ —

جهنم

دار القتال مروعا رهيبا . ولم يكن يشبه فى عنفه ووحشيته سوى معارك القرون الوسطى ، حينما كان المتقاتلون يلتحمون وجها لوجه ، فتتمزق أجسامهم وتجرى دماؤهم انهارا .

كان سمك الجدار اربعة امتار كما تقدم . وكان على المهاجمين لكى يصلوا الى داخل القاعة الارضية حيث نصبت الاستحكامات ان يشقوا طريقهم فى فتحة مظلمة طولها اربعة امتار ، ذات التواءات وتعاريج ، تبرز صخورها كانياب الحيتان ، وتتكدس فوق ارضها بقايا الاتربة والاحجار .

كان القتال فى هذا المحيط كالقتال فى داخل القبر .

وما كادت طلائع المهاجمين تصل الى نهاية الفتحة حتى دوى صوت يصم الآذان كأنه قصف المدافع . فقد أطلقت النار من الجانبين فى وقت واحد . وصرخ جوفان فى رجاله : اهجموا عليهم !

واجابه لانتناك صائحا : اصمدوا امام العدو !

ثم تقارعت السيوف وتطاير الرصاص . وسقط الرجال صرعى يمينا ويسارا . وانعقد الدخان فى جو القاعة ، فكساها حجابا مظلما تعمى فيه العيون ، وتختنق الانفاس . ووطىء المتقاتلون باقدامهم جثث الجرحى ومن يلفظون النفس الأخير . فانبعثت آنات الالم من الصدور ، واشتد الكرب والعذاب .

اما فى الخارج فكان السكون سائدا . ولم تتجاوز اصوات هذه الملحمة المروعة جدران الحصن السميكة . فكأن جهنم فى الداخل . والعبر فى الخارج . ونام الأطفال الصغار فى مراقدهم هادئين .

اشتدت المعركة . وصمد المدافعون خلف الاستحكامات . وفقد المهاجمون عددا من رجالهم . اذ كانوا يتقدمون صفا واحدا من الفتحة .

وقف جوفان فى ابان هذه المعركة مستبسلا غير هياب ولا وجل ، وكان الرصاص يتطاير حوله من كل مكان . وفيما هو يدير راسه لاعطاء بعض الاوامر ، لمح وجها بجانبه . فهتف :

سيموردان ! ماذا تفعل هنا !

كان هذا سيموردان حقا . وقد اجاب :

— جئت حتى اكون قريبا منك .
— لكنك ستقتل !
— ليكن . وانت ! ماذا تفعل اذن !
— ان وجودى هنا ضرورى . اما انت فلا .
— ما دمت انت هنا . فلابد من وجودى هنا كذلك .
— كلا يا استاذى .
— بل نعم يا ولدى .

وبقى سيموردان الى جانب جوفان لا يفارقه .

سقط الرجال جماعات فوق ارض القاعة . ومع ان الاستحكامات لم تقع بعد فى ايد المهاجمين الا ان الغلبة دائما فى جانب الكثرة . وكان يقتل واحد من المحصورين الى جانب عشرة من المحاصرين . لكن الامدادات لم تنقطع عن هؤلاء . بينما كان عدد المدافعين يقل ويتضاءل .

وقف المدافعون التسعة عشر جميعا خلف الاستحكامات . وسقط منهم قتلى وجرحى ، وبقى منهم خمسة عشر قادرين على القتال والدفاع .

ازدادت المجزرة وحشية وفظاعة . ورفع سيموردان صوته فوق صوت الرصاص وصاح : ايها المحصورون ! لم تتركون دماءكم تجرى انهارا ! . انتم مهزومون ! . سلموا انفسكم ! . فكروا فى الموقف ! . نحن اربعة آلاف وخمسمائة . وانتم تسعة عشر ! . اى اكثر من مائتين فى مقابل واحد ! . سلموا ! .

فرد عليه الماركيز لانتناك قائلا : لنضع حدا لهذا النفاق !

وأطلقت عشرون رصاصة مرة واحده جوابا على سيموردان .
لم تكن جدران الاستحكامات ترتفع الى السقف . وفى هذا فرصة للتسلق . ولذلك صاح جوفان : اهجموا على الاستحكامات . هل منكم من يتطوع للتسلق فوقها !
فاجاب الجاويش رادوب : انا .

— ٩ —

رادوب

كان رادوب قد دخل من الفتحة فى الطليعة . وسقط اربعة من زملائه البارسيين الذين كانوا ستة فى القدمة .
وما كاد يجيب بتلك الكلمة السابقة عن سؤال جوفان ، حتى استولت الدهشة على نفوس زملائه ، فقد شاهدوه ينحنى ويمر من بين اقدامهم حتى وصل الى الفتحة ، ولم يصدقوا ان مثل هذا الرجل يهرب .
كان رادوب قد لاحظ ان نسف الفتحة فى اسفل الحصن قد احدث صدعا فى الجدار امتد من الارض الى نافذة الطابق الاول حيث تحطم حاجزها الحديدى البارز بفعل المدفع الذى اطلق انذارا للمحصورين . وبرزت احجار الجدار كأنها درجات سلم معدة للتسلق .
تخلى رادوب عن بندقيته وخلع سترته . ثم دس طبنجته فى حزامه وامسك سيفه بين اسنانه . وراح يتسلق احجار الجدار البارزة بيديه وقدميه العاريتين كانه قرد ، بينما كان الجنود الذين ينتظرون دورهم للدخول الى الفتحة ينظرون اليه فى دهشة وذهول .
كان الصعود شاقا . لكن رادوب لم يحفل بشىء وقال لنفسه :
— من حسن الحظ انه لا يوجد احد فى الطابق الاول ، والا لما تركونى اصعد هكذا .
وبذل رادوب جهدا خارقا حتى تعلق بالفتحة وزحف منها الى القاعة .
كان صوت القتال المستعر فى الطابق الارضى يدوى فى سمعه مروعا هائلا .. ولما ارتطمت قدماه بسيفه فوق الارض انحنى

يتناوله بيده ثم تقدم فى الغرفة محاولا ان يهتدى الى طريقه فى الظلام .
وفجاة لمح خلف العمود طاولة مستطيلة ورأى اجساما تلمع .. فدنا منها وجعل يتحسسها بيده .. فوجد عليها كمية من البنادق القصيرة والطبنجات مصفوفة بنظام كأنما اعدها المحصورون لاستخدامها عند الطوارىء .
هتف رادوب فرحا .. وادرك انه بهذا السلاح اصبح قوة هائلة ورأى امامه باب القاعه مفتوحا مطلا على السلم المؤدى الى اعلى والى اسفل .. وسرعان ما تناول بندقية قصيرة متعددة الطلقات وسدد فتحتها الى ناحية السلم ، واطلق رصاصاتها الخمس عشرة، وهو يصيح بملء فمه : تحيا باريس !
ثم تناول بندقية مماثلة ، وصوبها الى السلم وانتظر .
اذهل هذا الهجوم الخلفى المفاجىء المدافعين : واحدث الاضطراب الشديد بينهم .. واصابت رصاصاته اثنين صرعتهما .
وهتف الماركيز : هم فى الطابق الاول !
وما كاد الماركيز يتم جملته حتى ارتد المدافعون الى الخلف وابتعدوا عن الاستحكامات بسرعة واندفعوا يجنون الى السلم .. وصاح الماركيز يستحثهم :
— اسرعوا ! .. الشجاعة الآن فى الهرب .. لنسرع جميعا الى الطابق الثانى .. سنصمد هناك ونبدأ القتال من جديد .
وانسحب الماركيز آخرهم .. والواقع ان هذه البسالة انقذت حياته : فان رادوب ما كاد يلمح اول الصاعدين حتى اطلق الرصاص ، فسقطوا صرعى .. ولو كان الماركيز فى الطليعة لهلك معهم .
وقبل أن يجد رادوب وقتا لحمل سلاح ثان كان الباقون قد جاوزوا الطابق الاول وفى آخرهم الماركيز دائما .. ولم يقفوا عند هذا الطابق لاعتقادهم بأنه حافل بالرجال ، واسرعوا الى الطابق الثانى حيث توجد قاعة المرايا ، والباب الحديدى .
ذهل جوفان بدوره من هذه المفاجأة ، ولم يفهم كيف وصلت هذه النجدة الى الطابق الاول .. على انه لم يضع وقته .. بل تسلق الاستحكامات على راس رجاله وطاردوا المنسحبين الى الطابق الاول، حيث وجدوا رادوب .
حيا رادوب قائده وقال له :
— لحظة واحدة ايها القائد .. انا الذى فعلت هذا .. انى

تذكرت ما حدث فى (دول) وحذوت حذوك .. وحصرت العدو بين نارين .
فقال جوفان باسما : انت تلميذ نجيب .
وقف المحاصرون فى الطابق الأول الذى استولى عليه رادوب ببسالة وجيء بمصباح .. وانضم سيموردان الى رادوب واخذ الاثنان يتشاوران .
لم يكن المهاجمون يعرفون مدى قوة اعدائهم . وخشوا ان يكونوا اعدوا لهم كمينا فى السلم . كما انهم فقدوا عددا كبيرا من رجالهم . وكانوا واثقين من التغلب على من بقى من المحصورين فى النهاية ، ولهذه الاسباب مجتمعة ، فضلوا ان يتشاوروا فى الموقف . والا يعرضوا الرجال للموت الا عند الضرورة القصوى . واخذوا يرسمون خطه الهجوم .
وقف المهاجمون الذين استولوا على الطابقين الارضى والاول ينتظرون نتيجه المشاوره بين جوفان وسيموردان . واخيرا قال رادوب بعد أن حيا تحية عسكرية : سيدى القائد .
ــ ماذا تريد يا رادوب ؟
ــ هل لى الحق فى ان التمس مكافأة يسيرة ؟
ــ نعم سل ما تشاء .
ــ ان التمس ان اكون اول الصاعدين .
كان من المستحيل ان يرفض جوفان هذا الطلب . ولو فعل لتقدم رادوب بلا استئذان .

ــ ١٠ ــ

على حافة القبر

بينما كانت المشاورة تدور فى الطابق الأول ، اخذ المدافعون يحصنون الطابق الثانى .
كان المشعل الذى اوقده ايمانوس بضوء القاعة ... ورأى المدافعون ان من العبث ان يغلقوا الباب . وآثروا أن يقيموا عقبة فى وجه المهاجمين تعوقهم عن الوصول اليهم .
كان بالغرفة صندوق ضخم ثقيل من خشب البلوط يستخدم فى حفظ الملابس .. وسرعان ما عمدوا الى هذا الصندوق ونصبوه على جانبه فى مدخل الباب ، فطابقه ، ولم يترك الا فتحة فى أعلاه

لو حاول احد من المهاجمين ان ينفذ منها كان نصيبه موتا محققا .
وقفوا يحصون خسائرهم .. لم يبق منهم الا تسعة فى جملتهم المركيز وايمانوس .. على ان خمسه من الباقين كانوا مثخنين بالجراح .. اما الباقون فقد لقوا حتفهم .
ولما احصوا الرصاصات الباقية لديهم كان نصيب كل واحد اربع رصاصات .
لم يبق امامهم امل .. وقفوا على باب الهاويه .. وكان هلاكهم محققا ..
ثم سمعوا اصوات البنادق وهى ترتطم بدرجات السلم اثناء صعود المهاجمين .. فايقنوا انهم سينقضون عليهم بعد قليل .
لم يكن امامهم منفذ للفرار .. فأمام غرفة المكتبة نصبت المدافع فوق الهضبة على استعداد لحصدهم .. وليس لهم اذا صعدوا الى اعلى الحصن الا ان يقذفوا بأنفسهم من حالق ؟
قال المركيز اخيرا : يا اخوانى .. انتهى كل شىء . فلنستقبل الموت .
واخذت ضربات بنادق المحاصرين ترن فوق الصندوق القائم فى مدخل القاعة .
اطرق الجميع وراحوا يصلون .
وفجأة رن صوت سريع قوى صدر من خلفهم ، قال صاحبه :
ــ الم اقل لك يامولاى ؟
التفت الجميع مشدوهين . فاذا هم يرون مخرجا يفتح فى الجدار .
شاهدوا حجرا فى الجدار يدور على محور ، وتخلفت عنه فتحة مزدوجة عن جانبيه .
وجدوا امامهم منفذين ضيقين ، لكنهما كانا يسمحان بمرور الانسان من كل منهما . ورأوا خلف هذا الباب القريب درجات سلم حلزونى .
كان وجه يطل من هذه الفتحة . عرف فيه المركيز وجه هالمالو .

ــ ١١ ــ

النجـــاة

قال المركيز : هذا انت يا هالمالو ؟
ــ نعم يا مولاى . هاقد تحققت انه توجد احجار تدور حقا .

وهي شيء واقعي . يمكنكم الخروج من هنا . انى جئت فى الوقت المناسب . لكن تعالوا بسرعة . ستكونون فى قلب الغابة فى خلال عشر دقائق .

هتف الرجال معا : انج بنفسك يا مولانا .

فقال الماركيز انتم أولا . لا نريد خلافا فى الايثار . لا وقت لهذا . انتم مجروحون . انى آمركم ان تعيشوا وان تهربوا .. اسرعوا .. انتهزوا وجود هذا المنفذ .. شكرا ياهالالو .

— وهل يجب ان ننفصل يا مولانا ؟

— نعم . ننفصل بلا ريب . لا يمكن أن نفلت الا فرادى .

— هل يحدد مولانا مكانا للقاء .

— نعم . فى المكان المعروف فى الغابة باسم (بيير جوفان) . هل تعرفونه ؟

— نعرفه كلنا .

— سأكون هناك غدا ظهرا . ليقابلنى فى هذا المكان كل من يستطيع السير .

— سنكون جميعا هناك .

فقال الماركيز : وسنبدأ الحرب من جديد .

حاول هالالو أن يزيح الحجر المتحرك قليلا لكنه لم يتحرك ، ولم يعد بالامكان اغلاق المنفذ ثانية . فقال : لابد ان نسرع يا مولاى . لن يتحرك . لقد تيسر لى فتح المنفذ . لكن لا يمكن اقفاله .

كانت مفصلات الحجر قد صدئت لقلة الاستعمال . واستحال ادارة الحجر واعادته الى مكانه .

استطرد هالالو : كنت ارجو يا مولاى أن اقفل المنفذ حتى اذا جاء الزرق ولم يجدوا احدا حسبوكم استحلتم الى دخان . لكن الحجر لا يتحرك . سيرى الأعداء المنفذ مفتوحا ، ويتبعوننا . لا تضيعوا ثانية واحدة . اسرعوا . أمامكم السلم .

وضع ايمانوس يده على كتف هالالو وقال له :

— كم يستغرق الوصول من هنا الى الغابة أيها الزميل ؟

فقال هالالو : هل يوجد بينكم احد جراحه خطيرة ؟

فاجابوا : لا أحد .

— فى هذه الحالة يكفى ربع ساعة .

فقال ايمانوس . اذهبوا . اذا امكن منع الاعداء من الوصول الى هنا ربع ساعة .

— قد يتبعوننا . لكن لن يدركونا .

فقال الماركيز : لكنهم سيصلون الى هنا فى خلال خمسة دقائق . من يستطيع ان يؤخرهم ربع ساعة ؟

فاجاب ايمانوس : انا .

— انت يا ايمانوس ؟

— نعم يا مولاى .. اصغ الى .. ان خمسة منكم مجروحون .. اما انا فلم يصبنى خدش واحد .

فقال الماركيز : ولا انا .

— انت القائد يا مولاى .. اما انا فجندى .. والاثنان يختلفان .

— اعرف ان لكلينا واجبا مختلفا .

— لا يامولاى .. ان لكلينا واجبا واحدا .. هو انقاذك .

ثم التفت ايمانوس الى زملائه قائلا :

— ايها الاخوان .. لابد من احتجاز العدو ومنع تقدمه بقدر الامكان . اصغوا الى .. انا متمالك كل قوتى .. ولم افقد قطرة واحدة من دمى .. وما دمت غير مجروح فبوسعى ان أصمد اكثر من غيرى . انجوا بانفسكم جميعا .. اتركوا لى اسلحتكم .. سأستخدمها على خير وجه .. ما عدد الطبنجات المحشوة هنا ؟

— اربعة .

— ضعوها على الارض .

اطاع الجميع أمره ، فاستطرد :

— حسنا .. سأبقى هنا . سيجدون من يؤنسهم .. والآن .. اسرعوا .. اخرجوا .

كان الموت معلقا فوق الرقاب .. ولم يبق وقت لتبادل عبارات الشكر .. وقال له الماركيز : سنلتقى قريبا .

— لا يا مولاى .. ارجو الا نلتقى قريبا . فانى اوشك أن أموت .

خرج الجميع من المنفذ واحدا بعد الآخر ، يتقدمهم الجرحى ، وراحوا يهبطون السلم .. وبينما كانوا ينجون بانفسهم اخرج الماركيز من جيبه قلما وخط به بضع كلمات فوق الحجر الذى بقى جامدا فى مكانه .

قال هالالو : هيا يا مولاى . ذهب الجميع الا انت .

وراح البحار يهبط السلم ، فتبعه الماركيز .. وبقى ايمانوس وحده .

– ١٢ –

الجـــــلاد

كانت الطبنجات الاربع موضوعة فوق الارض .. فانحنى ايمانوس وتناول اثنتين بيديه ، ودنا من مدخل القـــاعة الذى كان يحجبه الصندوق الضخم .

تردد المهاجمون ولم يحاولوا ازاحة الصندوق مرة واحدة .. فقد خشوا كمينا .. ولكنهم حطموا قاعه بقـواعد بنادقهم واحدثوا فى اعلاه ثقوبا بحرابهم .. وحاولوا أن ينظروا من خلال هذه الثقوب الى داخل القاعة قبل الدخول .. وكان ضوء المصابيح التى اناروا بها السلم يبدو من خلال الثقوب .

لمح ايمانوس عينا تتطلع اليه من خـــلال احد الثقوب . فسدد الطبنجة بسرعة الى القلب وضغط على الزناد .. وكم كان فرحه حينما سمع صرخة مروعة .. فقد نفذت الرصاصة من عين الجندى واخترقت مخه .. وهوى الى الخلف فوق السلم .

كان المهاجمون قد احدثوا فتحتين كبيرتين فى الصندوق .. فدفع ايمانوس الطبنجة فى احداهما واطلق النار عفوا على المحاصرين .

سمع ايمانوس صرخات متعددة .. فعلم ان الرصاصة اصابت أكثر من واحد .. وتقهقر الرجال فى السلم .

القى ايمانوس الطبنجتين الفارغتين ، وتناول المحشوتين .. ونظر من خلال الثقوب فرأى مبلغ ما احدثته طلقاته فى المهاجمين .

كانوا قد هبطوا السلم .. ولم يستطع ان ينظر سوى اربع درجات لتعرج السلم .. ورأى الجرحى الذين اصابتهم رصاصاته يتلوون على الارض ألما .. فاخذ ينتظر . وناجى نفسه بهذه الكلمات : كسبنا وقتا لا بأس به .

واخيرا رأى رجلا يرتقى السلم زحفا على بطنه .. وفى نفس الوقت ظهر له رأس رجل آخر من خلف العمود الذى يدور السلم حوله .

صوب ايمانوس الى الرأس واطلق النار . فسمع صرخة .. وسقط رأس الجندى .. واسرع ايمانوس بالقاء الطبنجة الفارغة وتناول المحشوة بيمناه .

وبيما هو يفعل احس بألم قاتل ؛ وصرخ بدوره [illegible]

فقد طعنه سيف فى بطنه طعنة نجلاء .

كان الجندى الزاحف على بطنه قد وصل الى الصندوق . ومد يده من خلال الفتحة الكبيرة السفلى ، واغمد سيفا فى بطن ايمانوس .. فنفذ الى امعائه .. واحدث بها جرحا مروعا .

لم يسقط ايمانوس .. بل صر على اسنانه وغمغم : لا بأس . ثم تحامل على نفســـه وانسحب وهو يترنح الى ناحية الباب الحديدى حيث كان المشعل موقدا .

القى ايمانوس الطبنجة على الأرض .. وتناول بيمينه المشـــعل المعلق بينما كان ممسكا بيسراه امعاءه المدلاة ، واضرم النار فى شريط الموت .

اشتعلت النار فى الشريط على الفور .. والقى ايمانوس المشعل من يده على الأرض .. وتنـــاول الطبنجة من جـديد .. وارتمى على الأرض .. بينما انتشر اللهب على امتـداد الشريط ، ومر اسفل الباب الحديدى .. ووصل الى البرج .

ولما اطمأن هذا الرجل الى نجاح مغامرته الجهنمية . هـــذا الرجل الذى ضرب اكثر من مثل فى البســالة والتضحية ثم انحط فى لحظة الى مرتبة القتلة — لما اطمأن هذا الرجل الى عمله ، ابتسم وهو يتمدد على الأرض استعدادا للموت وغمغم :

— سيذكرون ايمانوس .. انى أثأر فى شخص اولئك الاطفـــال الثـلاثة ، لذلك الطفل الذى ننتمى الينا جميعـا .. الملك الصغير الأسير فى سجن (التامبل) .

– ١٣ –

وفاة ايمانوس

فى هذه اللحظة حدثت ضجة عالية .. ودفع الصندوق بعنف الى داخل القاعة ، ودخل رجل شاهرا بيده سيفا ، وصـاح قائلا :

— هذا انا .. رادوب ! اورنى ما تفعلون .. انى سئمت الانتظار . انى جازفت بالدخول .. ومهما يكن فانى مزقت امعاء احدكم .. وانا الآن أهاجمكم جميعا .. هانذا جئت اليكم ، سواء تبعنى الباقون او لم يتبعونى .. كم انتم هنا ؟ .

كان الداخل هو رادوب حقا .. وقد جاء وحده .

والواقع ان جوفان خاف على رجاله من كمين مجهول بعد المجزرة التى احدثها ايمانوس من خلف الصندوق .. ولذلك تراجع معهم ، وراح يتشاور فى الموقف مع سيموردان .

وقف رادوب شاهرا سيفه فى مدخل القاعة التى كان يسودها الظلام الا من ضوء يسير منبعث من المشعل الذى كاد ينطفىء . وردد سؤاله الأول :

— انا وحدى . كم انتم هنا ؟

لم يجبه صوت .. فتقدم الى الأمام .. وفى هذه اللحظة ارتفع من المشعل ضوء اخير كالذى يحدث عادة قبل الانطفاء ، فاضاء القاعة . وشد ما دهش رادوب حينما راى القاعة خالية ... فهتف : لا يوجد احد !

ثم وقع نظره على الحجر والمنفذ والسلم .. فصاح قائلا :

— آه ! . فهمت .. مفتاح الحقول ! .. تعالوا كلكم ! .. ايها الزملاء ! . اسرعوا ! . انهم هربوا ! . ذابوا ! . تبخروا ! . بهذا الحصن العتيق منفذ سرى ! . وهذه هى الفتحة التى افلتوا منها ! . ان الشيطان انقذهم بنفسه ! . لا يوجد احد هنا .

لم يتم رادوب جملته .. فقد انطلقت رصاصة مست كتفه واصطدمت بالجدار فقال : آه ! . اذن يوجد أحد هنا ! . من هو الذى تفضل وحيانى بهذه التحية ؟ .

فاجاب صوت قائلا : انا .

التفت رادوب حوله .. فراى ايمانوس فى الظلام ، فهتف :

— آه ! . انى وجدت واحدا على كل حال . ان الجميع افلتوا . لكنى أعدك الا تلحق بهم .

فاجابه ايمانوس : هل هذا رايك ؟

تقدم رادوب خطوة الى الامام ، ثم وقف ، وقال :

— انت راقد على الأرض ! . من انت ؟

— انا شخص يستهزىء بك .

وما كاد ايمانوس يتم هذه الجملة حتى لفظ انفاسه الأخيرة .

وصل جوفان وسيموردان بعد قليل مع باقى الجنود . فراوا المنفذ . وتبعوا السلم المتفرع عنه . فوجدوه متصلا عند نهايته بسرداب يفضى الى الأخدود . وايقنوا أن المحصورين قد افلتوا من أيديهم .

تناول جوفان مصباحا راح يتحسس الحجر الذى الى جانب المنفذ . كان قد سمع عن أمثال هذه الاحجار المتحركة ، بيد انه لم يصدق هذه الخرافه .

وفيما هو يفحص الحجر راى هذه العبارة مدونة عليه : « الى اللقاء يافيكونت جوفان » .

كانت متابعة الهاربين عقيمة . فثمة امامهم الغابات والاحراش يختفون فيها . والسكان يقدمون اليهم جميع المساعدات اللازمة . ولا ريب انهم ابتعدوا الآن بعدا كافيا . بل ان غابة (فوجير) بمجاهلها التى لا تحصى هى خير ستار يحجبهم عن العيان . فما العمل ؟ . لابد ان يبدا الصراع من جديد .

وقف جيشام بجوار جوفان وتبادلا حديثا يشف عن القنوط والخيبة . واصغى سيموردان اليهما صامتا وقد علت وجهه دلائل الرزانة والهدوء والاستغراق فى التفكير .

— ١٤ —

الساعة والمفتاح

تبع الماركيز لانتناك هالمالو . وافضى بهما السلم الذى هبطا منه فى اثر الهاربين السابقين الى سرداب مجاور للأخدود ولقواعد البرج .

كان هذا السرداب يؤدى الى شق غائر ينتهى عند الاخدود من ناحية وعند الغابة من ناحية اخرى . وكانت الاشجار الكثيفة تحجب نهاية السرداب حتى ليتعذر على أى انسان ان يرتاب فى اختباء احد به . واذا وصل الهارب الى هذه النقطة لم يبق أمامه الا ان ينسل دون أن يشعر به احد .

حينما وصل الماركيز مع هالمالو الى الشق العميق لم يجد اثرا للهاربين الخمسة . فقال هالمالو : انهم اسرعوا بالابتعاد .

فقال الماركيز : اقتد بهم .

— هل يجب ان اترك مولاى ؟

— بلا ريب . انى اخبرتك بذلك من قبل . اسلم للانسان أن يهرب وحده . ولو بقينا معا للفتنا الأنظار الينا .

— هل يعرف مولاى هذه المنطقة ؟

— نعم .

— وهل لا يزال مولاى يحدد مكان الاجتماع عند (بير جوفان) ؟

— غدا عند الظهر . ساكون هناك . بل ستكونون جميعا هناك .

ثم قال هالالو بانفعال : آه يا مولاى ! . لا اكاد املك صوابى كلما فكرت فى اننا كنـــا معا فى عرض البحر وحدنا وانى حاولت ان اقتلك ، وانك كنت سيدى ، وانه كان يمكنك ان تخبرنى بهـذه الحقيقة . ولـكنك مع ذلك لم تتكلم !

قال الماركيز : انجلترا .. لم يعد هناك ملجأ غيرها . يجب ان ينزل الانجليز الى فرنسا فى خلال خمسة عشـر يوما .

— ان عندى اقوالا كثيرة اريد ان افضى بها الى مولاى . انى قمت بتنفيـذ اوامره .

— سنتكلم فى كل هذا غدا .

— الى اللقاء غدا يا مولاى .

— هل انت جائع ؟

— ربما يا مولاى .. انى اسرعت بالمجىء الى هنا دون ان ادرى اذا كنت اكلت اليوم او لم آكل .

تناول الماركيز قرصا من (الشيكولاتة) من جيبه وشطره شطرين اعطى احدهمـا الى هالالو ، واخذ ياكل الشطر الثانى .. وقال هالالو :

— مولاى .. الاخدود على يمينك .. والغابة عن يسارك .

— حسنا .. اتركنى واذهب الآن .

اطاع هالالو .. وابتعد فى الظلام ، وسمع الماركيز حفيف الاغصان بضع لحظات .. ثم ساد الـسكون .. وكان يتعذر على اى انسان فى هذا الوقت ان يتعقب هالالو او يعرف الاتجاه الذى سلكه .

وقف الماركيز جامدا فى مكانه .. كان بحكم الحياة التى عاشها والتجـارب التى مرت به ، جامد العـواطف لا يستجيب لاسباب الانفعال والتأثر .. غير انه لم يستطع فى هذه اللحظة ان يكتم انفعاله حينما الفى نفسه يستنشق الهواء النقى بعد ان بقى وقتا طويلا مختنق الانفاس بين مشاهد الدم وآثار الهلاك ، وبعد ان استرد حريته وعاد الى الحياة ، وقد ايقن منذ لحظات انه وقف على حافة القبر .

كان هذا الاحـساس اقرب الى الفرح والابتهاج منه الى اى شىء آخر .. غير انه تغلب على شعوره واقصى عنه هذا الانفعال بسرعة ، واخرج ساعته من جيبه ونظر فيها .

وشد ما دهش حينما الفاها لم تتجاوز العاشرة .. شأن الانسان دائما حينما يقضى لحظــات عصيبة بين اليأس والامل وبين الموت والحياة ، حتى اذا انجلت عنه غمرتها لم يجدها اطول من المالوف .

كان مدفع الانذار قـد اطلق قبيل الغـروب .. وهاجم الزرق الحصن بعد ذلك بنصف ساعه ، بين السابعه والثامنه وقت هبوط الظلام . وهكذا بدأ الصراع الهائل فى الساعة الثامنه ، وانتهى فى الساعة العاشرة ، ولم تستغرق تلك الملحمة المروعة سوى ساعتين .

أعاد الماركيز ساعته الى جيبه . لكنه لم يضعها فى نفس الجيب الذى اخرجها منه . فقد وجد فى هــذا الجيب مفتاح الباب الحديدى الذى اعطـاه ايمانوس اياه . وخشى ان يتحطم زجاج الساعة اذا وضعها بجواره .

ثم اتجه نحو الغابة بدوره . وفيما هو ينعطف الى اليسار خيل اليه انه رأى ضوءا ضعيفا يخترق الظلام .

عاد الماركيز ادراجه . وفجأة دنا من بقعة رأى عندها ضوءا عظيما فى الاخدود . ولم يكن يفصله عنها سوى بضع خطوات .

اسرع الى هذه البقعة . ولما رأى انه سيعرض نفسه للانظار فى هذا الضوء ، وانه يوشك ان يرتكب حماقة لا مبرر لها ، امسك عن التقدم .

لم يكن يعنيه ما يحدث . ولم يلبث ان سار فى الاتجاه الذى ارشده اليه هالالو ، واتجه الى الغابة .

وفيما هو محجوب خلف الاغصان . سمع فجأة صرخة مروعة يتردد صداها فوق رأسه . وخيل اليه ان هذه الصرخة صدرت من فوق حافة الهضـبة المشرفة على الاخدود ، فرفع الماركيز عينيه . ووقف مكانه جامدا .

الفصل العاشر

تحت رحمة النيران

- ١ -

وجدتهم .. وفقدتهم

كانت ميشيل فليشار تبعد عن الحصن بنحو ثلاثة اميال حينما وقع نظرها عليه . على ان تلك المخلوقة التى لم تكن تقوى على رفع قدميها لم تتردد فى اجتياز هذه المسافة .

كانت المراة ضعيفة منهوكة . اما الام فقد استمدت من ضعفها قوة . وسارت الى الامام .

غربت الشمس . وانتشر الشفق . ثم ساد الظلام . وفيما هى تواصل السير سمعت من بعيد ناقوسا محجوبا فى طوايا الظلام يدق مؤذنا بالساعة الثامنة . ثم التاسعة .

وكانت تقف بين حين وآخر وتصغى الى أصوات غريبة كانهـا صدى ضربات مكتومة . على انها عزتها الى هبوب الرياح .

استمرت فى السير غير حافلة بالأشواك والنباتات البرية التى كانت تدمى قدميها . وكان يحدوها ضوء يسير ينبعث من الحصن المتباعد ، فيحدد هيكله فى الظلام . وزاد هذا الضوء وضوحا حينما تعالت الاصوات التى سمعتها ، ثم تلاشى كلّ شيء فجاة .

وكانت الهضبة التى سارت ميشيل فليشار فوقهـا مغطاة بالحشائش والنباتات البرية . ولم يكن بها منزل واحد ولا شجرة نامية . وكانت تتدرج فى الارتفاع حتى تتصل بالافق عند نهايتها . على ان الام جعلت الحصن نصب عينيها وغايتهـا المنشودة ، وهو ما كان يدفع عنها الانحلال والتهدم .

كانت الاصوات المكتومة والاضواء اليسيرة المنبعثة من الحصن تصدر متقطعة . كانت تعلو ثم تخفت فجاة فتحير قلب الام المنكودة وتملؤه عذابا وضنى .

وفجاة تلاشت الاصوات والاضواء جميعا مره واحده وساد سكون مطبق كسكون القبور . وفى هذه اللحظه وصلت ميشيل فليشار الى نهاية الهضبة .

رات عند قدميهـا اخدودا يختفى قاعه فى الظلام ، وعلى مسافة قليلة منهـــا قمة الهضبة ، مشهدا غريبا هو خليط من العجلات والهياكل المعدنية ، هو بطارية مدفعية ، وامامها بناء ضخم يشمله الظلام ، مكون من قاعدة تقوم كالقنطرة فوق الاخدود ، ومن مبنى يشبه البرج . وهذا البناء جميعه قائم فى ظل هيكل شاهق مستدير هو الحصـن الذى قطعت فى سبيل الوصول اليه كل هذه المسافه .

دنت ميشيل فليشار من حافة الهضبة قريبا من البرج حتى خيل اليها انها تكاد تلمسه ، لولا ان فراغ الاخدود كان يفصله عنها . ورات طبقات البرج الثلاث امام عينيها .

وقفت امام هذا البناء الغريب زمنا لم تدر تحديده . وراحت تسائل نفسها عن كنهه وعما يدور فيه . وعما اذا كان هو (لاتورج) الذى سعت اليه . واحست بدوار غريب يستولى عليها .

وفجاة انتشرت سحابة من دخان كثيف امامها ، فحجبت عن نظرها هذا البناء الذى كانت تنظر اليه مشتته الفكر ، وسمعت صوتا عنيفا جعلها تغمض عينيها ، وما كادت تفعـل حتى احسـت بضوء باهر يغمر بصرها . ففتحت عينيها .

تبدد الليل . وساد النهـار . لكنه نهار مروع . نهار نوره نار .

رات امامها ألسنة من نار تتلظى، صادرة من نافذة مشبكة بالقضبان الحديدية فى الطابق الاول بالبرج . وكان فراغ النافذة شعلة مضطرمة كانها فوهة اتون مستعر .

حدقت ميشيل فليشار امامها وقد عقد الذهول لسانها . خيل اليها انها تحت تاثير حلم ثقيل وكابوس مروع . ولم تدر اهى فى اليقظة ام فى المنام . ولم تعـرف ان كان يسوغ لها البقـاء او الابتعاد .

ثم هبت الريح فجاة وبددت الدخان . فرات ميشيل فليشار فى ضوء اللهب كافة طبقات البرج والحصن معا واضحة المعالم محددة الاجزاء .

كان الطابق الاسفل من البرج يحترق . اما الطابقان الباقيان ، فلم تمسهما النار بعد . لكنهما ارتكزا فوق قاعده من نار .

وكان الدخان ينقشع بين وقت وآخر . فتسنى لميشيل فليشار

ان ترى نوافذ الطابق الثانى جميعا مفتوحة ، ورات دواليب الكتب مصفوفة بجلاء فوق الجدران ، ولمحت قرب احدى النوافذ جسما غامضا راقدا فى الظلام يشبه مجموعة من الطيور فى عشها . وكان يخيل اليها ان هذا الجسم يتحرك احيانا . فركزت عينيها فى هذه الناحية .

راحت ميشيل فليشار تسائل نفسها عن كنــه هــذه المجموعة الراقدة فى الظلام . وكان يخيل لها احيانا انها مكونة من اجسام حية . لكنها كانت فى شبه حمى . فهى لم تذق شيئا منذ الصباح. وسارت سيرا شاقا متواصلا . واضناها الاعياء والاجهاد . واحست بانها تكاد تقع فريسة للهذيان ، لولا أن مسكة من الصواب كانت تقويها على التشدد والجلد .

على انها مع ذلك لم تستطع ان تحول عينيها عن تلك المجموعة الراقدة قرب نافذة الطابق الثانى فى البرج .

وفجأة امتدت السنة النيران من النافذة واتصلت بعمود النباتات الجافة المتسلقة الممتدة على طول جدار البرج ، وسرعان ما اشتعلت النار فيه كانما غذته قوة جهنمية ، وامتدت فى طرفة عين الى الطابق الثانى . وسطع وهج النار فكشف عن الأطفال الثلاثة راقدين فوق الأرض . كانوا مجموعه من الأيدى والســيقان الغضه متشابكة متلاصقة ، والوجوه الملائكية الباسمة .

عرفت الأم أطفالها .

صرخت صرخة مخيفة .. صرخة مفعمة بالالم القاتل لا تصدر الا عن الأم وحدها . صرخة وحشية مؤثرة معا .

كانت هذه الصرخة هى التى نفذت الى سمع الماركيز دى لانتناك .. وما كاد يسمعها حتى وقف جامدا . ورأى فى مكانه من خلال الأغصان مبنى البرج شعلة من نيران انعكس وهجها الارجوانى فوق طبقات الحصن . ولما رفع رأسه الى اعلى من خلال فرجة الاغصان فوق رأسه . رأى عند حافة الهضبة فوق جانب الاخدود الثانى ، وأمام البرج المشتعل — رأى امرأة منحنية فوق حافة الهاوية ، وقد انعكس ضوء اللهب على وجهها المتقع المتقلص الما وفزعا .

وادرك ان الصرخة التى سمعها صدرت من تلك المرأة .

كانت المسكينة تعوى كالوحش الجريح . وكانت صرخاتها الاليمة تفطر القلوب وتفتت الجماد . وكانت تنبعث من عينيها الباكيتين سهام كانها ومض البرق .

اصغى الماركيز الى الـكلمات المختلطة المؤثرة التى كانت تصدر منها وتصل الى سمعه جلية : آه يا ربى ! . اولادى ! . هؤلاء اولادى ! . النجدة ! . النار ! . النار . النار ! . أيها اللصوص القتلة ! . لا احد هناك ! . اولادى يحترقون ! . جورجيت ! . آلين ! . رينيه جان ! . ما معنى هذا ! . من وضع اولادى هناك ! . هم نائمون ! . آه ! . انى جننت ! . لا يمكن ! . النجدة .. النجدة .. !

فى هذه اللحظة تعالت الحركات وساد الهرج فى الحصن وفوق الهضبة .. وخف جنود المعسكر جميعا الى النار التى امتد لهبها ، وانهمك جوفان وسيموردان وجيشام فى اصدار الاوامر .

على انهم لم يستطيعوا ان يعملوا شيئا . ولم يتيسر لهم ان يحملوا من قاع الاخدود سوى بضع دلاء قليلة من الماء ، فاشتد الفزع ، وامتلأت حافة الهضبة بكتلة متلاصقه من الرجال الذين وقفوا جزعين مضطربين يراقبون امتـــداد ألسنة اللهيب ، وهم عاجــزون عن احمادها .

كانت النار المشتعلة فى عمود النباتات المتسلقة قد وصلت الى الطابق العلوى فى البرج ، اى الى المخزن المملوء بالقش ، وسرعان ما اضطرمت فيه وغدا شعلة مروعة ، وكانت السنتها تتراقص رقصا شيطانيا كانما كانت روح ايمانوس الخبيثة تنفث فيها من شرها وتوهجها .

لم تصل النار بعد الى قاعة المكتبة لسمك الجـدران وارتفـاع سقفها ، لكن اللحظة الرهيبة كانت آتية لا ريب فيها ، وان هى الا لحظات حتى تطبق السنة النار من اعلى ومن اسفل على الغرفة ، فتحترق ، ويشوى الأطفال شيا .

كان الأطفال الثلاثة مستغرقين فى نوم هنىء .. كانوا يظهرون بجلاء فى فترات متقطعة فى تلك الفجوة النارية التى تضطرم فوقهم وتحتهم يعلوهم الهدوء والسكينة ويشع حولهم نور ملائكى .

كانوا ملائكة راقدين فى جهنم ، كان القبر يوشك ان يطبق عليهم بلا رحمة ، ولو رآهم نمر لبكى .

كانت الام تصرخ كالمجنونة : النار ! . النار ! . هل انتم صم ! . هم يحرقون اولادى ! . تقدموا ! . تقدموا ايها الرجال الذين اراهم هنــــاك ! . اواه كم من الايام سرت اليهم ! . وهـــذه هى نهاية الســير ! . النار ! . النجدة ! . ثلاثة ملائكة ! . ثلاثة ملائكة

يحترقــون ! . ماذا فعلوا وهم أبرياء !؟ اعـــدمونى .. وهم الآن يحرقون اولادى ! . من يفعل هذا ! . النجدة . انجدوا اولادى !.

وفيما كانت الام تردد كلماتها المؤثرة الأليمة .. كانت اصوات اخرى تتردد فوق الهضبة ، وفى الاخدود : سلم ! .

ـ لا يوجد سلم !

ـ ماء !

ـ لا يوجد ماء !

ـ هناك باب .. فى الحصن .. فى الطابق الثانى .

ـ هو من حديد !

ـ حطموه !

ـ مستحيل !

وفى اثناء ذلك كانت الام توالى نداءاتها المحزنة : اسرعوا ! . النار ! . انقذوهم ! . او اقذفونى معهم .

وضع الماركيز يده فى جيبه ولمس مفتاح الباب الحديدى .. واخيرا .. احنى قامته ودخل الى السرداب الذى نجا منه منذ قليل .. وعاد ادراجه .

ـ ٢ ـ

من الباب الحجرى الى الباب الحديدى

كان الموقف عجيبا . جيش كامل مؤلف من اربعـــة آلاف من الرجال ، يعجز عن انقاذ ثلاثة اطفال !

استحال ايجاد سلم . وازدادت النار انتشارا . وكانت محاولة اطفائها بالمياه القليلة الباقية فى قاع الاخدود كمحاولة اخماد بركان بكوب ماء .

هبط سيموردان وجوفان وجيشام ورادوب الى قاع الاخدود . ثم صعد جوفان الى الطابق الثانى فى الحصن ، حيث يوجد الباب الحجرى الصغير والمنفذ السرى والباب الحديدى المؤدى الى غرفة المكتبة فى البرج . وفى هـذه الغرفة اشـــعل ايمـانوس الشريط الكبريتى ، وبدأت النار من هذا المكان .

كان امام جوفان امل واحد . هو تحطيم الباب . فامر باحضار عشرين فاسا ومعولا .

جربوا الفئوس . فتحطمت واحدة بعد الاخرى . ثم المعاول . ولم يكن حظها باحسن من حظ غيرها .

كان الباب مصنوعا من طبقتين من الفـــولاذ المتين ملتحمتين معا ، سمك الطبقة الواحدة ثلاثة قراريط .

ثم استعانوا بقضبان حديدية وحاولوا تحطيم الباب بها . لكنها تحطمت كسابقتها .

غمغم جوفان فى كآبة : لا يمكن فتح هذا الباب الا بمدفع . ليته كان بمكن احضار مدفع الى هذا المكان .

وقف الرجال مغلوبين على أمرهم . حيـــارى . مضطربين . محزونين . لا يدرون ماذا يفعلون .

فقدوا كل امل . وما هى الا دقائق حتى تلتهم النار البرج وتقوض اركانه .

دار جوفان براسه حوله . ولما وقع نظره على الباب الحجرى والمنفذ السرى لم يتمالك ان هتف غاضبا : من هذا المكان هرب الماركيز دى لانتناك .

فاجابه صوت قائلا : ومنه يعود !

ظهر وجه يجلله المشيب فى فتحة المنفذ السرى .

كان القادم هو الماركيز دى لانتناك .

لم ير جوفان هذا الوجه منذ اعوام طويلة . فلم يتمالك ان تراجع خطوات . ووقف الباقون مشدوهين .

امسك الماركيز مفتاحا كبيرا فى يده . ونظــر بانفه الى حاملى المعاول الذين وقفوا امامه . ثم تقدم راسا الى الباب الحديدى . ودس المفتاح فى قفله .

صر الحديد . وفتح الباب . فانكشف خلفه اتون ملتهب . ودخل المـاركيز اليه رافـع الرأس ، ثابت الخطـا .. وتبعه الواقفـون بنظراتهم .

ما كاد الماركيز يخطو بضع خطوات فى الرواق الملتهب الموصل الى غرفة المكتبة . حتى تصدع الـسقف الـذى اكلته الـنيران . وهوى تحت قدميه . وجعل بينه وبين الباب الحديدى هوة عميقة .

على انه لم يلتفت حوله ، بل واصل سيره الى الامام فى ثبات عجيب واختفى فى لفائف الدخان . ولم يعد يراه احد .

هل تـسنى له ان يتقـدم ؟ . هل انفتحت تحت قـدميه هـوة جديدة ؟ هل قضى على نفسه بيديه ؟

لم يجد احد من الواقفين جوابا على هذه الاسئلة . كان حجاب من نار ودخان يقوم أمامهم .. وكان الماركيز خلف هذا الحجاب .. حيا أو ميتا .

— ٣ —

يقظـــــة

فتح الصغار اعينهم أخيرا .

لم تدخل النار بعد الى المكتبة . لكن كان ضوءها الارجواني ينعكس فوق السقف . وكانت السنتها القانية تتراقص في الظلام كأنهـا نجوم تتلاحق في صفحة السماء .

وحدث صدوع في جدران الطابق الاعلى ، واخذت اعواد القش الملتهبة والفئران المذعورة المحترقة تنهال تباعا من النوافذ العليا الى الارض كأنها مطر من ذهب وفحم .

لم ير الاطفال مثل هذا المشهد . فاستولى على البابهم واستحوذ على عقولهم الصغيرة . ونهضوا جميعا .

صاحت الأم : آه ! . استيقظوا !

مد رينيه جان ذراعيه نحو النافذة وقال : حر ! .

فرددت جورجيت كلمته . وصرخت الام :

— اولادى . رينيه . آلين . جورجيت !

تطلع الصغار حولهم . وحاولوا أن يفهموا .

من المواقف مايخيف الرجال ويروعهم . لـكنه يثير الفضول وحب الاستطلاع في نفوس الاطفال فحسب . وعسير على من يستطلع ان يجزع . والواقع ان الجهل لون من القوة .

رددت الأم نداءها : رينيه جان ! آلين ! .. جورجيت !

حول رينيه جان راسه . وايقظه هذا الصوت من حلمه . للطفل ذاكرة قصيرة . لكنها سريعة التحفز . والماضي في عينيه هو الأمس المنصرم .

رأى رينيه جان امه . ووجد هذا امرا طبيعيا . فقال . ماما :

وردد كل من آلين وجورجيت هذه الكلمة . وبسطت الطفلة ذراعيها الصغيرتين .

صرخت الأم : اولادى !

دنا الأطفال الثلاثة من حافة النافذة . ولحسن الحظ ان النار لم تصل اليها بعد . اذ كانت في الجانب الاخر .

والتمس رينيه جان امه بعينيه ، وهتف : ماما !

كانت الأم جامدة في مكانها مهدلة الشعر ، ممزقة الملابس ، دامية اليدين والقدمين .. وما كادت تسمع هذا النداء حتى فارقها تجلدها وهوت الى الاخدود وهى تتخبط من شجرة الى شجرة ، حيث وقف سيموردان وجيمنام مع الجنود ، وهم حائرون مضطربون . عاجزون عن اى شيء . أما جوفان فكان في مثل حالتهم فوق حافة الاخدود .

هرع رادوب الى حيث سقطت ميشيل فليشار . وما كاد يراها حتى هتف :

— المرأة التى اعدمت ! . اذن عدت الى الحياة من جديد ! .

قالت الام وهى تنتحب : أولادى !

فأجاب رادوب : لك حق .. لا وقت للبحث في الاشباح .

اما النار فكانت تتزايد انتشارا . ورأى الجميع أيدى الأطفـال الثلاثة تمتد من النافذة . وما لبثت الواح الزجاج في دواليب الكتب ان سقطت وتحطمت . فايقن الجميع ان الكارثة ستحل بعد لحظات .. وكان صوت الاطفال يصل الى آذانهم جليا وهم يرددون نداءهم :

— ماما ! ماما .. !

جمدوا في اماكنهم رعبا . وفجأة .. ظهر هيكل طويل القـامة في فراغ النافذة حيث وقف الأطفال .

رفعت الرءوس ، وتطلعت العيون . واحتبست الانفـاس في الصدور .

ظهر رجل في هـذا الاتون الملتهب . كان وجهه محتجبـا في الظلام . غير انهم لمحوا شـعره الابيض . فعـرفوا فيه الماركيز دى لانتناك .

اختفى عن نظرهم . ثم ظهر ثانية . ووقف في فتحة النافذة ممسكا بيده سلما كبيرا ... كان سلم النجاة الذى وضعه ايمانوس في غرفة المكتبة . فحمله الماركيز وأمسكه من احدى نهايتيه بخفة ونشاط من النافذة الى الأخدود .

أطبق رادوب على السلم حينما صار في متناول يده ، وهتف :

— تحيا الجمهورية .. !

فصاح الماركيز : تحيا الملك !

لكن رادوب غمغم .

ــ أهتف ما شئت .. لكنك ملاك رحمة ورسول من السماء ؟ .

استقر السلم على الارض . واسرع عشرون جنديا يتقدمهم رادوب وارتقوا درجاته حتى تكون منهم سلم بشرى . ولمس رادوب بيده حافة النافذة . وتدافع الجنود المنتشرون فوق الهضبة وفى الاخدود وعلى قمة الحصن ، وقد جاشت فى صدورهم عواطف مضطربة واحساسات مؤثرة .

اختفى الماركيز . ثم عاد حاملا طفلا بين ذراعيه . فالتهبت الاكف بتصفيق حاد .

كان الماركيز قد حمل اقرب طفل اليه . وهو آلين ، الذى هتف :

ــ انا خائف .. !

ناول الماركيز الطفل الى رادوب . فاسلمه رادوب الى الجندى الواقف تحته .. واسلمه هذا الى الذى يليه .. وراح آلين ينتقل من يد الى يد وقد اشتد خوفه واخذ يبكى .

وفى هذه الاثناء غاب الماركيز ثم عاد حاملا رينيه جان الذى كان يتملص بين يديه ويبكى ، وفيما هو يسلمه الى رادوب لطمه بيديه الصغيرتين ، ثم حمل الى الارض كأخيه .

عاد الماركيز الى داخل الغرفة التى انتشرت فيها النار . فى هذه اللحظة كانت جورجيت وحدها .. فتقدم منها .. فابتسمت .. فلم يتمالك هذا الرجل الصخرى ان ترقرقت الدموع من عينيه .. وسألها :

ــ ما اسمك ؟

فقالت : جورجيت !

حملها بين ساعديه .. ولم تفارق الابتسامة شفتيها .. وفيما هو يهم بتقديمهما الى رادوب بهرته طهــارتها ونقاوتها وبراءتها .. فقبلها .

قال الجنود : هى الطفلة الصغيرة .

هبطت جورجيت من يد الى يد حتى وصلت الى الارض بين صيحات الفرح والابتهاج .. ومن الجنود من راح يصفق .. ومنهم من كان يبكى وينتحب .. اما الطفلة فكانت تبتسم لهم .

وقفت الام عند نهاية السلم محبوسة الأنفاس ، زائغة الحواس ، مذهولة من هذا التحول الذى القى بها من الجحيم الى الجنة .

بسطت ذراعيها .. واستقبلت اولا آلين ، ثم رينيه جان ، ثم

جورجيت .. وضمتهم بجلباب جلدها .. وضمتهم ضمة وعانقتهم ، ثم هوت مغمى عليها .

ارتفعت صيحة بهذه الجملة : نجا الجميع !

نجا الجميع حقا .. الا الكهل .

لكن احدا لم يفكر فيه فى هذه اللحظه .. بل ربما لم يفكر هو فى نفسه .. فقد وقف عند حافة النافذه هادئا فى حلم .. كانما يريد ان يترك للنار أن تواصل مهمتها .

واخيرا خطا فوق حافة النافذة بتؤدة وكبرياء ، مرفوع الرأس منتصب القامة ، موليا ظهره الى الحريق والى درجات السلم .. وراح يهبط درجات السلم فى عظمة وشموخ كانه طيف .

وثب الرجال الباقون فوق السلم .. وسرت رعدة فى الجميع .. لكن الرجل اخذ يهبط فى الظلام بهدوء .

ابتعدوا عنه .. اما هو فكان يدنو منهم .. ولم يبد فى صفحة وجهه الشاحب اقل انفعال .. وكان وهو يهبط اليهم يبدو فى اعينهم اكثر شموخا وارتفاعا .

ما كاد الماركيز يستقر على الأرض ، حتى وضعت يد على كتفه .

التفت حوله .. فقال له سيموردان : انى اقبض عليك .

فقال الماركيز : وأنا موافق .

الفصل الحادي عشر

النضال بعد الفوز

ــ ١ ــ

لانتناك اسيـر

أخذ لانتناك اسيرا ... وانحدر بيده الى القبو .

كان في الحصن قبو له باب في الطابق الارضي ، وهذا القبو مؤلف من غرفتين .. العليـا وهي على امتداد قاعة الطـابق الارضي في الحصن ، ولها باب يفتح في هذه القاعة .. وكانت مظلمة ، رطبة الهواء .. في جداريها المتقابلين حفرتان غائرتان لهما تاريخ مروع .. فقد كانت امام كل جدار عجلة ضخمة كان يربط فيها السجين في العصور الوسطى ، في كل عجلة ذراع وساق ، ثم تدار العجلتان في وجهتين متضادتين ، فتتمزق اعضاء السجين المنكود .. اما الآن فقد ذهب هذا النظام المروع ولم يبق منه الا اثره في الجدران .

وفي أرض هـذه الغـرفة فتحة تشرف على القسم الارضي من القبو ، وهي مقبرة بكل ما في الكلمة من معنى .. فلم يكن بهـا منفذ آخر غير الفتحة العليا .

وكان هواؤها زمهريرا . وفي قاعها ماء راكد . فاذا أدلي السجين اليها من الغرفة العليا زهقت روحه بعد دقائق معدودات .

اما الآن فقد سدت الفتحة المشار اليها . وجيء بالماركيز دي لانتناك الى غرفة القبو العليا . ففتحت تحت اشراف سيموردان الصارم . ووضع بها مصباح واناء ماء ورغيف من الخبز الجاف وحزمة من القش . وما كاد يمضي ربع ساعة منذ وضع سيموردان يده على كتف الماركيز حتى كان لانتناك أسيرا في هذه الغرفة ، واغلق بابها عليه .

ولما فرغ سيموردان من هذه المهمة ذهب للبحث عن جوفان ،

حيث كانت الساعة في هذا الوقت قد بلغت الحادية عشرة . وقال سيموردان لتلميذه السابق :

ــ ساعقد محكمة عسكرية لن تكون من اعضائها . فانت ولاشك احد من أفراد اسرة جوفان . وقرابتك اليه تحول دون جعلك قاضيا له .. وستؤلف المحكمة العسكرية المذكورة من ثلاثة قضاة : ضابط هو الكابتن جيشام ، وصف ضابط هو الجاويش رادوب ، وانا .

وساتولى الرياسة . وسنلتزم بتطبيق قانون (مجلس الامة) ، وستقتصر مهمتنا على اثبات شخصية الماركيز السابق دي لانتناك . ولن يعنيك شيء من كل هذا .

ستنعقد المحكمة العسكرية غدا .. وبعد غد تنصب المقصلة وبقضي على ثورة (فانديه) الى الأبد .

لم يجب جوفان بكلمة واحدة . وتركه سيموردان وذهب لاتمام الاجراءات التي أشار اليها . لقد كان عليه ان يحدد الوقت ويختار المكان . وكان يجب أن يشرف بنفسه على تنفيذ اجراءات الاعدام . وهذه العـادة الغريبة ، اي حضور القاضي بنفسه لرؤية الجلاد وهو يؤدي مهمته ، مقتبسة من محاكم التفتيش الاسبانية ، ومن عهد الارهاب الذي ساد فرنسا في عام ٩٣ .

كان جوفان كذلك منهمكا في التفكير . وفي هذا الوقت هبت على المعسكر من الغابة ريح قاسية . نعهد جوفان الى جيشام باعطاء الاوامر اللازمة ، وذهب الى خيمته القائمة على حدود الغـــابة عند قاعدة الحصن وتناول عباءته الخاصة والتف بها .

كانت هذه العباءة ذات غطاء يوضع على الرأس ، ولم يكن بها من الزخارف سوى شارة القائد العام .

كانت النار لم تخمد بعد . لكن لم يعد احد يهتم بها . وذهب رادوب الى جانب الأم واولادها واخذ يواليهم برعايته . وأتت النار على بناء البرج . وما بقي منه اعمل فيه الجنود معاولهم . وانهمك الجنود في حفر الخنادق ودفن القتلى فيها ، ومعالجة الجرحى ، وهدم الاستحكامات وازالة آثار المعـــركة المروعة التي دارت بين جدران الحصن التاريخي .

لكن جوفان لم يحفل بهذا كله ولم ينظر اليه . فقد كان منهمكا في أفكاره . ولم يلتفت الى شيء .

وفيما هو كذلك رنت في اذنه هذه الـكلمات التي سمعها من

سيموردان : « ستعقد المحكمة العسكرية غدا . وبعد غد تنصب المقصلة » .

اخذ جوفان يسير بتؤدة ذهابا وايابا فى الظلام غير بعيد عن فتحة الحصن ، حيث يوجد الماركيز سجينا فى القبو المجـــاور للطابق الأرضى . وكان من وقت لآخر يمســك رأسه بين راحتيه ، شأن من ينهمك فى تفكير عميق .

— ٢ —

منطق جوفان

وقع تطور عظيم فى خلق الماركيز دى لانتناك .. وشهد جوفان بعينيه مظاهر هذا التطـــــور . ولم تكن يصدق أن الحـوادث مهما تتابعت وتضاربت يمكن أن تؤدى الى مثل هذا التحول .

شهد جوفان معجزة بعينيه . شهد قدر الانسانية على انسان . وكان سلاح هذه المعركة هو .. المهد .

رأى ثلاثة أطفال بؤساء ، يتامى ، منبوذين ، معدومى النصير ، ينتصرون على طغيان الحروب وكوامن الاحقاد . وقد انهزمت كل هذه القوى أمام ابتسامتهم البريئة الطاهرة . وكان لهذه المعركة الرهيبة مسرح واحد هو ضمير لانتناك .

لكن المعركة بدأت من جديد . بدأت اشد عنفا واضطراما ، وكان مسرحها هذه المرة .. ضمير جوفان .

كان الماركيز محصورا فى الحصن . واعتقد الجميع انه هالك لا محالة ومقضى عليه بالموت ، فاذا هو فى غمضة عين ينجو بمعجزة ، ويفلت من ايدى اعدائه المتعطشين لدمه . ويحتمى فى ظلام الغابة حيث يجند القوى الخفية التى تشد ازره ، ويستأنف الحرب من جديد وهو اشد قوة واقدر على النضال .

نال الماركيز حريته واصبح طليقا يروح ويغدو حيث يشاء . لكنه لم يلبث أن تخلى عن هــذه الحـرية وعاد الى الموت بمحض ارادته .

فعل الماركيز هذا لكى ينقذ ثلاثة اطفال . فاذا هم يجازونه بالموت وينصبون له المقصلة !

هل كان هؤلاء الأطفال أولاده ؟ . هل كانوا من أسرته ؟

هل كانوا من طبقته ؟ . لا . كانوا اطفالا مجهولين ، [illegible] الطريق ، ممزقى الثياب ، حفاة الاقدام ، مجهولين .

لكن هذا النبيل ، هذا الامير ، هذا البطل الذى [illegible] حروبه وانتصر على اعدائه بافلاته من قبضتهم . هذا الرجل قد ضحى بكل شيء وفقد كل شيء . وفى نفس الوقت الذى اعاد فيه الحياة الى الأطفال ، قدم رأسه فخورا شامخا .

كان للماركيز أن يختار بين حياته وحياة غيره . فاختار الموت فى نبله وسموه . وسوف يقتلونه . فيـا له من جزاء للبطولة !

سوف تهوى سكين المقصلة فوق عنق هذا الجنـــدى العظيم والشيخ القوى والمحارب الاعزل . وسيحدث هـذا بحضور جوفان القـائد وتحت سمعه وبصره . دون أن يتدخل او يبـدى ادنى أعتراض .

لكن .. الم يكن جوفان ينشد موت هذا الرجل ويسعى الى سليم رأسه الى سيموردان ؟ صحيح ان جوفان كان يتوق الى هذا ويعمل جاهدا لتحقيقه حينما كان لانتناك رجلا سفاحا يقتل الأسرى ويجرى الدماء انهارا ويحصد الارواح حصدا بلا رحمة . لكن لانتناك القاتل اختفى وتلاشى . وظهر على المسرح لانتناك آخر . واستحال الوحش الى انسان رحيم منقذ ، يشع منه نور سماوى يبهر الانظار .

وفى الوقت الذى يتطور فيه لانتناك هذا التطور يبقى جوفان جامدا كما كان ؟ . فهل يقبل هذا ؟ . وهل يقف مكتوف اليدين أمام البطولة النادرة التى ابداها لانتناك ؟

لابد أن ينقذ لانتناك جزاء بطولته وشهامته .

لكن فرنسـا ؟ . هل يعرضها بانقاذ الماركيز للخطر الرابض فى المحيط ، الذى ينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض عليها ؟

ان لانتناك لا يكاد ينجو من سجنه حتى يمد يده الى انجلترا ، ويقول لها ، « تعالى . خذى فرنسا » .

فهل يقدم جوفان على هذه الخطوة ؟ هل يرتكب هذه الجريمة ؟ هل يطلق سراح لانتناك حتى يفتح أرض الوطن للغزاة المتربصين ؟ هل يتركه حتى ينفخ من جديد روح الثورة فى ميادين (فنديه) ويؤلب جيوشها ؟ . هل يقدم جوفان على هذا بعد أن بات لانتناك اسيرا ينتظر الموت بين ساعات ؟

لا ريب أن لانتناك لا يكاد يسترد حريته حتى يعود كما كان ، قاسيا لا يرحم ، يحرق البيوت ، ويذبح الأسرى ، ويقضى عـلى

الجرحى ، وبعدم النساء ... وفوق هذا كله .. اليس جوفان مبالغا فى تقديره لهذه البطولة التى ابداها لانتناك ؟ انقذ لانتناك ثلاثة اطفال كانوا هالكين . لكن من ذا الذى قذف بهم الى الهلاك ؟ . اليس هو لانتناك ؟ . من وضع اسرة الاطفال الثلاثة فى البرج الملتهب ؟ . ان المسئولية فى هذا الفعل تقع على عاتق القائد . واذن فالجانى هو لانتناك . فما الذى فعله حتى يستحق التقدير والاعجاب ؟ كل ما فعله انه لم يندفع الى النهاية فى اتمام الجريمة . ولما سمع صرخات الام افاق لنفسه وقدر هول الجريمة وبشاعتها . فوقف فى منتصف الطريق . ولم ينسق فى الاجرام الى الغاية .

هذا كل ما فعله . فمن اجل هذا القليل ، يمنحه جوفان حريته وحياته ، حيث ستأنف الحرب من جديد ، ويعود الى القتل والتخريب ؟!

على انه اذا سعى جوفان لاقناع لانتناك بالعدول على خطته ونفض يديه نهائيا من الحرب اذا اطلق سراحه ، فلن يكون نصيبه غير القتل ، فهو يعرف لانتناك . ولن يكون جوابه له الا هذه الكلمات : « اليس انت هذا العار . اقتلنى ! » .

لم يكن هناك ما يفعله جوفان نحو هذا الرجل الا ان يقتله او يحرره . ففى الاولى عذاب والم لنفسه . وفى الثانية مسئولية ، وعبء جسيم .

ثم عاد جوفان ثانية الى النقطة الاولى التى كانت مدار تفكيره . هل لا يزال لانتناك حقا ذلك النمر المفترس الذى يتصوره ؟ . هل هو كذلك بعد هذه التضحية النبيلة التى قام بها ؟ . وبعد ان برهن على نكران الذات والانسانية والتسامى على احقاد الحروب ، وبعد ان ادى واجبه السامى الذى تمثل فى اعتراف القوى بحق الضعيف فى حمايته ؟ . هل لا يزال كذلك بعد ان ضرب اروع الامثال وقدم حياته ونزل عنها طائعا مختارا ؟ . هل يمكن ان يبقى نمرا من قام بهذه الافعال وقدم هذه الامثال ؟ . هل يجب ان يعامل بعد هذا كله معاملة الوحوش ؟

لا . لا . ان الرجل الذى بدد ظلمات الحروب الاهلية ووحشيتها بهذا النور السماوى ليس نمرا ولا وحشا . ان لانتناك قد كفر عن كل مساوئه الماضية بهذه التضحية التى اقدم عليها . ان تسليم نفسه لاعدائه قد طهر روحه . فاستحق العفو والصفح .

ضرب لانتناك بتضحيته مثلا اعلى . فعلى جوفان ان يقتدى به .

ماذا يفعل ؟ . هل يتخاذل عن اداء هذا الواجب الذى القته الاقدار على عاتقه ؟ . لا .

غمغم جوفان لنفسه : « لننقذ لانتناك » . فاجابه صوت آخر : « حسنا . انقذ لانتناك . ساعد انجلترا . سلم فرنسا للاعداء » .

ارتعد جوفان . ولم يدر اى السبيلين يسلك . وباى الرايين ياخذ .

هل يترك الماركيز يهلك ؟ . هل ينقذه ؟ . اين الواجب فى هذين الطريقين المتنافرين ؟

- ٢ -

عباءة القائد

انتصف الليل . ثم اذنت الساعة الواحدة .

اخذ جوفان يدنو من فتحة الحصن شيئا فشيئا دون ان يفطن لذلك .

كانت السنة النار لا تزال تخبو وترتفع . وفجاه اندلع لسان من اللهيب اضاء قمة الهضبة ، وكشف عن هيكل مركبة .

حدق جوفان فى المركبة . فرآها محوطة بفرسان .

كان بعض الرجال فوق المركبة ينزلون حملها . كان ثقيلا ، يصدر منه بين لحظة واخرى رنين كرنين الحديد . وتعاون رجلان على حمل صندوق وضعاه على الارض ، كان يبدو من شكله انه يحتوى جسما مثلث الشكل .

تلاشى لسان اللهب . وغمر الظلام كل شىء كما كان . ووقف جوفان شارد الذهن يحدق الى ما يخبئه الظلام فى طياته .

اضيئت المصابيح .. واخذ الرجال يروحون ويجيئون فوق الهضبة . لكن اشباحهم كانت مختلطة . كما كان جوفان فى ناحية الاخدود المنخفضة . ولذلك لم يستطع ان ينظر ما يجرى ... وكان يسمع بين وقت وآخر صوت ارتطام اخشاب توصل بعضها ببعض . كما سمع صوتا غريبا كانه شحذ سلاح معدنى .

دقت الساعة الثانية .

وتقدم جوفان الى فتحة الحصن كانما تدفعه قوة قاهرة لا يقوى على مغالبتها . ولما دنا عرفه الحارس من عباءته ، فرفع سلاحه في تحية عسكرية .

دلف جوفان الى قاعة الطابق الأرضي التي تحولت الى غرفة للحرس . كان مصباح يتدلى من سقفها . واستطاع جوفان في ضوئه ان يجتاز القاعة دون أن يدوس على الجنود الذين تمددوا فوق القش وقد نام اكثرهم لشدة التعب بعد المعركة الطاحنة .

نهض بعض الجنود عند دخول جوفان ، وبينهم الضابط المنوب . فاشار جوفان بيده الى باب القبو ، وقال للضابط : افتح الباب .

رفع المزلاج . وفتح الباب . ودخل جـوفان . ثم اغلق الباب خلفـه .

– ٤ –

السـجين

كان الماركيز الأسير يروح ويجيء في سجنه كالاسد في قفصه ، حينما فتح الباب .

رفع الماركيز راسه عند سماعه صوت فتح الباب واغلاقه ، فسطع ضوء المصباح الموضوع فوق الأرض على وجهه وعلى وجه جوفان معا . تبادلا النظر . ورأى كلاهما في عيني صاحبه ما اوقفه في مكانه جامدا .

ثم ضحك الماركيز اخيرا ضحكة قوية وهتف :

– عم مساء يا سيدي .. لم اتشرف بمقابلتك منذ زمن طويل .. ان هذه الزيارة فضل منك .. شكرا لك .. لا أطمع الا أن اتحدث قليلا .. كدت امل هذه الوحدة .. ان اصدقاءك يضيعون وقتـا طويلا في اجراءات المحكمة العسكرية التي يتشبثون بها . ويمكن ان تختصر هذه الاجراءات وان انتهى بسرعة . هانذا في بيتي وبين جدران حصني . لا باس .. ما رايك في كل ما يحدث ؟ ستقول انه طبيعي .. اليس كذلك ؟ سأتشرف بمعرفة المقصلة صباح غد .. فهل ستقوم بمهمة الجلاد ؟ . اما اذا كانت هذه زيارة عادية ، فانك تملأ قلبي تأثرا .. ربما لم تعد تعرف يا فيكونت من هو النبيل ! .. لا باس .. امامك واحد .. هو أنا .. انظر الي . هو يؤمن بالله

.. ويقدس التقاليد ، والاسرة ، والسلف . هو يدين بالطاعة والولاء للمليكه ، ويحترم القوانين الوراثيه ، والفضيله ، والعداله . ويجد لذة في اعدامك .

ارجو ان تتفضل بالجلوس . لا حيله في جلوسك على الارض ، فليس بغرفتي مقعد وثير يليق بك !

هذه غرفة قديمة تاريخية في قصري .. كان النبلاء قديما يحبسون الدهماء بين جدرانها . فاذا الدهماء الان يحبسون النبلاء فيها .. وهذا هو ما تنعتونه بالثورة . يلوح ان راسي سيعطع في ظرف ست وثلاثين ساعة .. ليكن .. لا ارى غضاضـة في هذا .. الان لو كان آسري أكثر ادبا ومجاملة لارسلوا الى علبة سعوطي .. هي موجوده في قاعة المرايا حيث كنت تلهو وتلعب في طفولتك . حيث كنت أدللك واحملك على ركبتي .

سيدي .. اسمح لي ان أقول لك شيئا واحدا . انك تنسـب نفسك الى اسرة جوفان . ومن عجب ان الدم النبيل يجري في عروقك وهو نفس الدم الذي يجري في عروقي . لكن هذا الدم الذي جعل مني رجلا شريفا ، قد خلق منك وغدا شريرا .

كان الماركيز يتكلم بهدوء ، واضعا يديه في جيوبه ، ثم امسـك عن الكلام ، واستنشق الهواء ، واستطرد :

– لا اخفي عليك اني بذلت جهدي لقتلك . بل لعلك رايت بعينيك اني سددت اليك مدفعا بيدي ثلاث مرات .. صحيح ان هذا عمل خلو من المجاملة .. ولكن العدو في اوقات الحروب يضرب أسوأ الامثال لو تمسك بتقاليد المجاملة فنحن نتحارب ، يا سيدي ، وابن أخي . والكلمة في هذه الايام للنار والسيف .. هذا زمن عجيب !

توقف الماركيز مرة ثانية ، ثم استطرد بعد قليل :

– علم الله ما كان يحدث شيء من هذا لو أن فولتير شنق ، واعدم روسو بالمقصلة ، في الوقت المناسب .. آه من اولئك المفكرين ! .. فهم أس هذا البلاء ! . وما دام في الدنيا كتاب ، فهناك التحريض واعمال العنف ! . ان الكتب اسباب الجرائم .. وكم يدفع الانـسان غاليا بسـبب هذا اللغو ! .. ما هي الحقوق التي تتشدقون بها ؟ . هي القتل والتدمير ! أليس هذا من البشاعة بمكان ؟ . « اني ارثى لك يا سيدي .. لكنك تنتمي الى اسرة جوفان النبـيلة . ولاجدادك تاريخ حافل بالمخاطر . وفي وسعي ان اسهب لك في بيان تفاصيله . لكن ما الفائدة ؟ . انك تتشرف بان تكون احمق مافونا ، وتضع نفسك

في مرتبة حوذى مركبتى .

لست ادرى على اى صورة تنتهى هذه المحنة ، وقد دمرتم كل شيء ولم تبقوا على شيء .. ليكن ايها المواطنون ! . أنتم سادة الموقف ! . احكموا ! . تمتعوا . افعلوا ما يحلو لكم ؟ . لا تتورعوا عن شيء ! . ولكن هذا كله لن يغير حرفا من الحقيقة الراسخة .. وهي ان الدين هو الدين .. وان تاريخ الملكية يحتل خمسة عشر قرنا في تاريخ بلادنا .. وان نبلاء فرنسا أسمى وأرفع منكم ، حتى بغير رءوس لهم . استمروا في افعالكم ! كونوا رجال العهد الجديد ! . انحطوا ! .

انى تكلمت .. فمر باعدامى يا سيدى الفيكونت . انني اتشرف بان اكون خادمك المطيع .

ثم اضاف الماركيز بعد هذه العبارة :

ـ آه . انى لم اتردد في بسط الحقيقة امام نظرك . ماذا يهمنى ؟ . انا ميت .

تكلم جوفان لأول مرة ، فقال :

ـ انت حر .

خلع جوفان عباءة القيادة ، ودنا من الماركيز وطرحها فوق كتفيه ، ثم وضع الغطاء فوق راسه واسدله حتى عينيه .. وكان كلاهما متشابه القوام .

قال الماركيز :

ـ ماذا انت فاعل ؟

رفع جوفان صوته ونادى :

ـ أفتح الباب أيها اللازم !

فتح الباب . وقال جوفان :

ـ اغلق الباب باحكام خلفى .

ودفع الماركيز بيده الى باب الغرفة ، وقد اخذ الذهول من نفسه كل ماخذ .

كانت قاعة الطابق الارضى قد تحولت الى غرفة للحرس كما تقدم ؛ وكان بها مصباح ضعيف يرسل نورا ضئيلا . ورأى من لم يكن نائما من الجنود في هذا الضوء الكليل شبح رجل طويل القامة ، ملتف بعباءة القيادة وعلى رأسه غطاؤها ، يمر في وسطهم ويتجه الى المدخل . فادوا التحية العسكرية وسار بينهم .

اجتاز الماركيز غرفة الحرس بتؤدة .. ثم الفتحة ، حيث اصطدم

راسه باحجارها الثابته اكثر من مرة .. ووصل الى الخارج .

اعتقد الحارس الواقف خارج الفتحة انه يرى القائد جوفان ، فادى التحية العسكرية .

وصل الماركيز الى الخارج . حيث تلاشت الظلمة على بعد امتار منه ؛ وامامه الحرية والحياة والجو الطليق . انه وقف ، وبقى في مكانه جامدا كانسان ترك نفسه يدفع واستسلم لهذه المفاجأة ؛ حتى اذا خرج ووقف عند الباب المفتوح ، راح يسائل نفسه : هل احسن او اساء ؟ . وتردد في التقدم ومواصلة السير ، واخذ يصغى للهاتف الاخير في اعماق نفسه .

رفع الماركيز راسه بعد تفكير عميق .. وغمغم : « الواجب » .

ثم واصل السير .

اما باب القبو فقد اغلق على جوفان .

ـ ٥ ـ

المحكمة العسكرية

كان رئيس المحكمة العسكرية في عام ١٧٩٣ في فرنسا هو كل شيء في المحكمة .. فيــــو يختار الاعضاء ، ويشرف على اجراءات المحاكمة ، وهو الرئيس والقاضى معا .

أختار سيموردان مكان المحكمة في قاعة الطابق الارضى في الحصن التى تحولت الى غرفة الحرس ، فقد اراد ان يختصر الطريق الى المحكمة ، ثم الى المقصلة .

انعقدت المحكمة بأمر سيموردان عند الظهر .. ولم يكن بالقاعة سوى ثلاثة مقاعد من القش ، وطاولة من خشب الصنوبر ، وثلاث شمعات ، ومقعد بغير ظهر امام الطاولة .

كانت المقاعد الثلاثة للقضاة ، والمقعد الاخير للمتهم .. ووضع كذلك عند طرفي الطاولة مقعدان مشابهان لمقعد المتهم ، احدهما لممثل الاتهام ، وهو برتبة ضابط ، والثانى لكاتب الجلسة ، وهو جاويش .

ووضع فوق الطاولة قضيب من الجمع الاحمر ، وختم نحاسى من اختام الجمهورية ، ومحبرتان وبعض اوراق بيضاء ، ونشر فوقها اعلانان ، يتضمن أولهما الامر القاضى باهدار حقوق لانتناك واصحابه ، والثانى (قانون مجلس الامة) .

وزين المقعد الاوسط بطائفة من اعلام مثلثة الالوان .. وكان معدا لجلوس الرئيس ، ووضع مواجها لباب السجن .

وتألف جمهور النظارة من الجنود .. ووقف حارسان على جانبي مقعد المتهم .

جلس سيموردان في المقعد الاوسط .. وعن يمينه الكابتن جيشام القاضي الأول ، وعن يساره الجاويش رادوب القاضي الثاني .

كان سيموردان يضع على راسه قبعة ذات شارة مثلثة الالوان ، وقد تمنطق بسيفه وتدلت طبنجتاه حول وسطه ، واكتسبت سحنته طابعا وحشيا بسبب الجرح الذي اصابه في وجهه في معركة (دول) .

وقبيل افتتاح اجراءات المحاكمة كتب سيموردان رسالة الى (لجنة الامن العام) في باريس بعث بها مع رسول خاص ، وكان نصها كما يلي :

« ايها المواطنون اعضاء لجنة الأمن العام — وقع لانتناك أسيرا . وسيعدم غدا » .

وحالما فرغ سيموردان من هذه الرسالة قال بصوت مرتفع :

— افتحوا باب السجن .

رفع حارسان المزلاج ، وفتحا الباب ، ودخلا الى السجن .

رفع سيموردان راسه ، وشبك ذراعيه ، وركز نظره في باب السجن ، وهتف :

— احضروا السجين .

ظهر رجل بين حارسين عند الباب ، ووقف .

كان جوفان .

انتفض سيموردان .. وهتف :

— جوفان !

ثم استطرد :

— انى طلبت السجين !

فقال جوفان :

— هو أنا .

— أنت .. ؟!

— ولانتناك ؟

— هو حر .

— حر .. ؟!

— نعم .

— أفلت .. ؟

— افلت ..

قال سيموردان متلعثما وهو يرتعد :

— الحقيقة أن الحصن ملك له .. وهو يعرف كافة منافذه ولا يبعد أن يكون القبو متصلا بمنفذ سري . وكان يجب ان افطن الى أنه قد يجد وسيلة للافلات . دون أن يحتاج الى مساعدة من احد .

فقال جوفان :

— هناك من ساعده .

— على الافلات ؟

— نعم .

— من ساعده .. ؟

— أنا .

— أنت تحلم .. !

— اني دخلت الى القبو . وبقيت وحدي مع السجين . وخلعت عباءتي ووضعتها فوق كتفيه وحجبت راسه بالغطاء . فذهب في مكاني وبقيت في مكانه . وهاأنذا .

— انت لم تفعل هذا .. !

— بل فعلته .

— مستحيل !

— بل هو الواقع .

— احضر الى لانتناك .

— لم يعد هنا .. حسبه الجنود انا حينما رأوا عباءة القائد . وتركوه يمر .. وكان الوقت ليلا .

— انت مجنون !

— اني قررت لك ما حدث .

ساد الصمت .. وقال سيموردان في تلعثم : اذن فقد تحققت .

فقال جوفان :

— الموت .

امتقع وجه سيموردان حتى غدا كوجوه الموتى . وجلس فى مكانه كالمصعوق . وسال العرق فوق جبينه . ولم يعد يتنفس . حاول ان يكسب صوته رنة الجمود والتماسك ، فقال :
— ايها الجنود .. اجلسوا المتهم .
جلس جوفان فوق المقعد .
فاستطرد سيموردان :
— ايها الجنود .. ارفعوا السيوف .
ثم قال وقد استعاد صوته رنته المألوفة : قف ايها المتهم .

— ٦ —

الحـــكم

نهض جوفان .. فسأله سيموردان : ما اسمك ؟
فأجاب بلا تردد : جوفان .
— من انت ؟
— انا قائد جيش السواحل الشمالية .
— هل تقرب او تتصل بالرجل الذى افلت ؟
— انا ابن اخيه .
— هل تعرف قانون (مجلس الأمة) ؟
— انى اراه مكتوبا فى الاعلان الموضوع على الطاولة .
— هل عندك ما تقوله بصدد هذا القانون ؟
— انى عززته بتوقيعى .. وامرت بتنفيذ منطوقه .
— اختر لك محاميا .
— سادافع عن نفسى .
— تكلم .
عاد سيموردان الى سابق صلابته وجموده .. وبقى جوفان صامتا لحظة كأنما يستجمع افكاره .. فقال سيموردان : ما هو دفاعك ؟
رفع جوفان راسه متمهلا ، وقال :
— ليس لدى ما اقوله غير هذا .. هناك شىء واحد حجب عن عينى كل ما عداه .. هناك عمل نبيل واحد حجب عن نظرى مئات الاعمال الآثمة .
فى أحد الجانبين رجل كهل .. وفى الجانب الثانى ثلاثة اطفال .

وكلاهما وقف بينى وبين واجبى .
نسيت القرى المحترقة .. والحقول التالفة .. والأسرى المذبوحين والجرحى المقضى عليهم .. والنساء المقتولات .
نسيت التواطؤ مع انجلترا على فرنسا .. واطلقت سراح قاتل الوطن . انا مذنب .. ويخيل اليكم وانا اقرر هذا انى اتكلم ضد مصلحتى . لكن هذا خطأ .. انا اتكلم فى مصلحتى .
اذا اقر المذنب بجريرته .. فهو ينقذ شيئا واحدا جديرا بالانقاذ . ينقذ شرفه .
قال سيموردان : هل هذا كل دفاعك ؟
— ساضيف كلمة اخرى .. لما كنت القائد ، فلكم على حق .. ولما كنتم القضاة ، فلى عليكم حق .
— وما هو الحق الذى تطلبه ؟
— موتى .
— هل ترى هذا عدلا ؟
— ولازما .
— اجلس .
نهض الضابط ممثل الاتهام ، وتلا اولا قانون اهدار حقوق الماركيز دى لانتناك السابق وثانيا قانون (مجلس الامة) الذى ينص على انزال العقاب الصارم بكل من يعمل على تسهيل الهرب لاحد من الأسرى الثائرين .. واختتم تلاوته بتلك الأسطر المذيلة فى اسفل الاعلان التى تحظر « تقديم المســاعدة الى العصاة » والا تعرض المخالفون للاعدام ، وهى التى وقعها جوفان « قائد جيش الســواحل » .
جلس ممثل الاتهام على اثر ذلك . فشبك سيموردان ذراعيه وقال :
— اصغ ايها المتهم . صمتا ايها الجمهور . سمعتم نص القانون . ستؤخذ الأصوات . وسيصدر الحكم بأغلبية الآراء . وسيعلن كل قاض قراره بصوت مسموع فى حضور المتهم ، فليس للعدالة ما تخفيه .
ثم استطرد سيموردان :
— سيعطى القاضى الأول صوته . كابتن جيشام . تكلم .
لم ينظر جيشام الى سيموردان او جوفان ، بل خفض بصره وركز عينيه فى الاعلان المتضمن القانون ، وقال :
— القانون ثابت لا يتغير . والقاضى اكثر واقل من انسان . اقل من انسان لانه لا قلب له .. واكثر من انسان لانه يشهــر سيف

العدالة . في عام ٤١٤ قبل الميلاد اعدم مانليوس الروماني ابنه لارتكابه (جريمة) قهر اعدائه بغير امره . هذا مثل ضرب في انتهاك النظام . وهنا قانون انتهكت حرمته . وما يزال القانون ارفع شانا من النظام . تعرض الوطن للخطر من جديد بسبب عاطفة شفقة .. وقد تبلغ الشفقة مبلغ الجريمة . ان القائد جوفان اعان الثائر على الهرب . فهو مذنب .. وارى له الموت .

فقال سيموردان : سجل ايها الكاتب .

سطر الكاتب هذه الجملة : « الكابتن جيشام : الموت » .

دن صوت سيموردان واضحا ساكنا : احسنت يا جيشام . اشكرك .

ثم استطرد سيموردان :

— دور القاضي الثاني .. تكلم أيها الجاويش رادوب .

ثم قال :

نهض رادوب ، والتفت الى جوفان ، وادى له التحية العسكرية ، ثم قال : اذا كان هذا ما تفعلون ، فاعدموني اذن ، لاني اقرر لكم امام الله ، واقسم بشرفي ، اني ما كنت اتردد في ان افعل اولا ما فعله الكهل وان افعل ثانيا ما فعله قائدي .

حينما رايت ذلك الكهل الذي بلغ الثمانين يثب بين السنة اللهيب لانقاذ ثلاثة اطفال من براثنها ، قلت لنفسي : « ايها الكهل .. انت رجل باسل » .

وحينما اسمع الآن ان قائدي قد انقذ الكهل من سكين مقصلتكم اللعينة ، اقول بملء صوتي : « يا قائدي . انعم بك من رجل .. ولو كان الامر بيدي ، لمنحتك وسام القديس لويس ، لو بقيت اوسمة ، او بقي قديسون » .

ايها الناس ! . هل سيدور بنا الزمن ؟ ونفقد عقولنا ؟ لو كان لاجل هذه النهاية ما كسبناه من المواقع المشهودة ، نعلى الدنيا السلام !

ماذا ؟ امامكم القائد جوفان ذلك الذي قضى اربعة اشهر يدافع عن الجمهورية بحد سيفه ، وفعل في (دول) العجائب . فهل تتخلصون منه ، وتفصلون راسه ، بدلا من تنصيبه قائدا عاما ؟! هذه حالة تذهب العقل ، وتفقد الصواب !

ايها المواطن جوفان . ايها القائد .. لو كنت جنديا تحت امرتي لا قائدي ، لوصفت كلامك الذي صرحت به الآن باللغو والمجون .

ان الكهل اتى عملا نبيلا بانقاذ الاطفال .

وانت اتيت عملا نبيلا بانقاذ الكهل .

واذا كنا نعدم الناس جزاء الاعمال النبيلة التي يفعلونها ، فلتذهبوا اذن الى جهنم ! . ولتخطفكم الشياطين ! . فقد انعدم المنطق واختلط الخير والشر .

ليس هذا صحيحا ! . اني لا اصدق ما ارى ! . هل انا في حلم ؟

لست افهم ! . هل كنتم تريدون ان يترك الكهل الاطفال يحترقون احياء ؟ .. هل كنتم تريدون ان يترك قائدي راس الكهل يقطع بالمقصلة ؟

انظروا الي ! . اعدموني ! . اني ما كنت اتردد في ان افعل ما فعل . ولو ان الاطفال قتلوا لتلوثت الفرقة الحمراء بالعار والفضيحة .. فهل هذا ما كنتم تريدون ؟ اذن ليهلك كل منا اخاه ! . ولنمت جميعا ! . اني افهم في السياسة ما يفهمه كل منكم .. وقد انضممت الى احزاب الثورة .

اننا ندنو من نهايتنا . اني احكم على الموضوع من وجهة نظري اليه .

لماذا نتقدم للموت ونجود بارواحنا ؟ . الكي يقتل زعيمنا ؟ كلام فارغ ! . سادافع عن قائدي ! . اني احبه اليوم اكثر مما احببته من قبل .

• ترسلونه الى المقصلة ! انتم تضحكونني ! لن نسمح ان يحدث هذا بيننا ! .

عاد رادوب الى الجلوس . وانفتح جرح في راسه اثناء دفاعه الحار ، وسال الدم فوق عنقه . التفت سيموردان الى رادوب وساله :

— هل تعطى صوتك ببراءة المتهم ؟

فاجاب رادوب : اني اطلب ان يكون قائدا عاما .

— أسالك اذا كنت تعطى صوتك ببراءته ؟

— اني اطلب ان يكون على راس الجمهورية ؟

— ايها الجاويش رادوب . هل تعطى صوتك ببراءة القائد جوفان ؟ نعم . او . لا ؟

— اني اطلب ان تقطع راسي مكانه .

فقال سيموردان : براءة . سجل ايها الكاتب .

سطر الكاتب هذه الجملة : « الجاويش رادوب . براءة » .

ثم قال الكاتب : صوت بالموت . وصوت بالبراءة .

جاء دور سيموردان . فنهض من مكانه . وخلع قبعته ووضعها فوق الطاولة .

لم يعد وجهه شاحبا او متقلصا . بل كان فى لون الطمى .

ساد سكون رهيب كسكون الموت . وقال سيموردان فى صوت رصين متئد ثابت : ايها المتهم . تم سماع القضية . باسم الجمهورية، حكمت المحكمة العسكرية باغلبية صوتين ضد صوت واحد .

توقف سيموردان عن اتمام النطق بالحكم . كانما يتردد فى اصدار حكم الموت او الحياة .. وجزعت النفوس .. واحتبست الانفاس فى الصدور .

ثم استطرد سيموردان : حكمت عليك بالاعدام .

شاعت فى وجهه اشراقة يسيرة هى صدى انتصاره المروع على المعركة الطاحنة التى ثارت فى نفسه . على انها لم تستغرق الا ثوان . وعاد الى وجهه امتقاعه السابق . وجلس فى مقعده ووضع قبعته على راسه ، ثم قال : جوفان . ستعدم غدا عند شروق الشمس .

نهض جوفان . وحيا . وقال : اشكر المحكمة .

فقال سيموردان : اذهبوا بالمحكوم عليه .

فتح باب القبو . ودخل جوفان . واغلق الباب . ووقف الحارسان على الجانبين وقد شهر كلاهما سيفه بيده .

وهوى الجاويش رادوب على الارض مغمى عليه . فذهبوا به .

— ٧ —

بين الياس والرجاء

امتلأت نفوس الجيش المظفر الذى استولى على حصن (لاتورج) باحساسات متناقضة . وكانت هذه الاحساسات موجهة اول الامر ضد القائد جوفان . حينما علموا بفرار لانتناك . فما كاد يظهر جوفان من القبو محل الماركيز دى لانتناك حتى انتشر النبأ بسرعة البرق . وذاع بين افراد الجيش جميعا فى طرفة عين . ثم راحوا يتهامسون بهذه الكلمات « سيحاكمون جوفان . لكن هذه لعبة . هل يمكن الوثوق بالنبلاء والقسس ؟ . قد راينا فيكونت ينقذ ماركيزا . وسنرى قسا يصفح عن نبيل ؟ » .

على انه ما كاد يذاع نبأ الحكم على جوفان بالاعدام حتى علت نغمة جديدة . راحوا يقولون : « هذا فظيع ! . زعيمنا ! زعيمنا الباسل ! قائدنا الشاب ! . بطل (دول) و (لاتورج) ! سيف الجمهورية فى (فنديه) ! هل يجرؤ المدعو سيموردان على اعدامه ؟! ولأى سبب ؟ . لأنه انقذ ثلاثة اطفال .. قس يقتل جنديا ! » .

بهذه الاقوال راح الجيش يتحدث . واستهدف سيموردان لغضب شديد .

اربعة الآف جندى ضد رجل واحد . جدير بهذا العدد ان يكون قوة هائلة .

لكنه لم يكن . فقد كان هؤلاء الاربعة الآلاف ، جمهورا . اما سيموردان فكان يمثل (الارادة) العاتية الصارمة . وكان المعروف ان سيموردان يغضب بسرعة ؟ وهذا ما جعل رجال الجيش يهابونه ويخشون بأسه .

كان يكفى الانسان فى ذلك العهد ان يكون مستندا الى (لجنة الامن العام) تؤيده وتشد أزره وتجعل منه رجلا مخيفا . فلا تلبث الصيحات ان تستحيل الى همس : والهمس الى سكون .

بقى سيموردان قبل هذه الاحتجاجات وبعدها ، المسيطر على مصير جوفان ، وعلى مصائر الجميع .

كانوا يعلمون انه لا سبيل الى التماس شىء منه ، وانه لا يخضع الا لصوت ضميره .

كان كل شىء منوطا به وحده ، معلقا عليه .

على ان ما ابرمه كقاض يطبق القانون العسكرى يمكن ان ينقضه كمندوب اهلى .

قد يمكن ان يرحم وان يترفق ، فهو يجمع فى يده سلطة مطلقة وفى وسعه باشارة ان يمنح جوفان الحياة والحرية . فهو فى هذه اللحظة العصيبة رجل الساعة .

وارخى الليل سدوله وهم يعللون انفسهم بهذه الآمال ، وليس لهم الا ان ينتظروا .

— ٨ —

عند شروق الشمس

بزغ الفجر . وعند بزوغه ظهر جسم غريب جامد غامض فوق

هضبة (لانورج) ، وكان يشرف من هذا الارتفاع على غابة (فوجير) .

وضع فى هذا المكان ليلا . ويكاد يخيل للناظر انه وثب فجاة الى موضعه وان الايدى لم تقم بانشائه .

على ان الناظر اليه لا يكاد يلمحه حتى تسرى فى جسده قشعريرة .

فهو المقصلة .. الدليل الناطق بوحشية الانسان .

ان الطبيعة صارمة . فهى لا تخفى ازهارها وموسيقاها وطربها وشمسها المشرقة ولا تحجبها عن قسوة الانسان او آلامه .. بل هى تحير الانسان بشدة التناقض بين جمالها السماوى وروعتها القدسية ؛ وبين وحشيته وقسوته . يقتل الانسان ويدمر ويخرب ويحطم . لكن جمال الطبيعة هو هو . ويبقى النجم هو النجم . والزهرة هى الزهرة .

اشرقت الطبيعة هذا اليوم فى عنفوان بهائها وروعتها . وكان كل شيء فى هذا المحيط ينطق بالطهر والبراءة . وهى نصيحة الطبيعة الخالدة الى الانسان .

فى ابان هذا الجمال السماوى انكشف خزى الانسان وعاره الابدى وظهرت المقصلة : رمز الجهالة والعقاب .

كانت الخليقة المزهرة الباسمة ، والطبيعة الساحرة الرائعة ، والسماء الذهبية الصافية — كانت جميعها تشرف على الآلة الجهنمية ، وكأنها تقول للانسان : « انظر الى ما اصنع ! . والى ما تصنع !» .

كان لهذا المشهد جمهوره . فقد التف جيش الساحل حول المقصلة وانتظم الجنود على جوانبها صفوفا عسكرية متراصة . ووقف رجال المدفعية حول مدافعهم متاهبين .

وارتفع حصن (لاتورج) فوق هذا المشهد . ولم يكن يفصل قمته المسطحة عن المقصلة سوى فراغ الاخدود .

ووضعت فوق قمة الحصن طاولة المحكمة العسكرية والمقعد المظلل بالاعلام المثلثة الالوان . ولما ارتفعت الشمس فى كبد السماء ظهر فوق القمة هيكل رجل جلس تحت الاعلام جامدا مشبك الذراعين .

كان الجالس سيموردان .

كانت تعلو راسه القبعة المثلثة الالوان .. ويتدلى حول وسطه

سيفه وغداراته .

جنس صامت . ووقف الجنود جميعا خافضى الانظار ، شاهرى الحراب لا ينبسون بكلمة واحدة كان على رءوسهم الطير .

كانوا يفكرون تفكيرا مضطربا فى امر هذه الحرب . فكم من معارك دموية خاضوها . وكم من كتل متراصة من الفلاحين اكتسحوها امامهم . وكم من حصون غنموها . وكم من نصر احرزوه . ثم خيل اليهم الآن كأنما استحال هذا المجد خزيا وعارا .

كانوا يرون الجلاد يهبط ويرتقى منصة المقصلة .

وفجاة قطع هذا السكون دقات طبول خافتة . وازدادت نغمات الموت فى آذانهم ارتفاعا . وفتحت الصفوف . وتقدم موكب فى هذا الميدان واتجه الى المقصلة .

جاء حاملو الطبول اولا . وتلتهم ثلة من الجنود بحراب منكسة .

وفى اثر هؤلاء شرذمة اخرى بسيوف مشهرة . ثم جاء المحكوم عليه .. جوفان .

تقدم الى الامام بخطوات ثابتة . ولم تكن حول يديه أو قدميه قيود . وكان يرتدى سترته العسكرية ويحمل سيفه . وسارت خلفه كتيبة اخرى من الجنود .

كانت تضيء وجهه ابتسامة مشرقة ، ولا شيء فى الدنيا أسمى ولا ابعث على التاثر من هذه الابتسامة .

ولما وصل الى المكان الرهيب اتجه بنظره الى قمة الحصن وازدرى ان ينظر الى المقصلة . فقد كان يعرف ان سيموردان لن يفرط فى واجبه الصارم نحو الاشراف على تنفيذ الاعدام . ورأى سيموردان فوق القمة .

كان سيموردان ممتقع الوجه ، بارد الاطراف . على انه بقى جامدا فى مكانه حينما راى جوفان ، ولم يختلج فى كيانه عضو ما .

تقدم جوفان الى المقصلة واخذ يرتقى منصتها . ولما استوى فوقها تبعه الضابط الذى يقود الجنود . حل جوفان سيفه واعطاه للضابط . ازال ربطه عنقه وناولها الى الجلاد .

بدا للناظرين كطيف من الاطياف . ولم يروه اصبح وجها ولا ابهى طلعة .. وكانت خصلات شعره الاشقر تتموج فى الهواء . وجيده ناصع البياض . ووقف فوق المنصة ساميا حتى فى مكان العقاب . وقف منتصب القامة شامخا هادئا . واحاطت الشمس وجهه بهالة من نور .

تقدم الجلاد بحبل لتقييد يديه .

فى هذه اللحظة .. حينما رأى الجنود قائدهم الشاب قرب سكين المقصلة ـ لم يقووا على كبح عواطفهم . وذابت قلوب هؤلاء المحاربين الصارمين .

تعالى صوت مرتفع . هو بكاء الجيش فى عبرة واحدة ممتزجة . دوت صيحة مجلجلة : « الرحمة ! . الرحمة ! » .

ركع بعضهم على الأرض .. والقى آخرون بنادقهم وبسطوا أيديهم نحو القمة التى جلس فوقها سيموردان .. وأشار جندى بيده الى المقصلة وصرخ : اذا اردتم بديلا فخذوا رأسى !

ردد الجميع نداءه فى جنون .. ولو رأتهم اسود لرقت قلوبها أو ارتاعت .. فان دموع الجنود شىء مروع .

تردد الجلاد .. ولم يدر ماذا يفعل .

ثم صدر من فوق الحصن صوت سريع خافت لكنه صارم ، نفذ الى أسماع الجميع .. قائلا : لينفذ القانون !

عرف الجميع هذا الصوت الصارم ، فاه سيموردان بالكلمة الفاصلة ، وسرت فى صفوف الجيش رعدة .

طرح الجلاد تردده .. ودنا من جوفان ممسكا الحبل .

فقال جوفان : انتظر .

التفت جوفان الى ناحية سيموردان .. ولوح له بيده اليمنى الطليقة مودعا ، ثم ترك الجلاد يقيده .

ولما تم تقييده ، قال للجلاد مرة ثانية : لحظة واحدة :

ثم هتف بأعلى صوته : تحيا الجمهورية !

مدده الجلاد فوق المنصة .. ووضع راسه تحت السكين .. وازاح برفق شعره جانبا ، ثم ضغط على اللولب ، فهوت السكين بسرعة ، وسمعت ضربة مخيفة مروعة .

وفى نفس الوقت جاوب ضربة السكين صوت عيار نارى .. فقد تناول سيموردان احدى الطبنجتين ، وفيما كان راس جوفان ينحدر الى السلة الموضوعة أسفل المقصلة ، اطلق سيموردان رصاصة على قلبه ، فتفجر الدم من فمه ، وهوى جثة هامدة .

ورفرفت هاتان الروحان الشقيقتان متعانقتين .. احداهما مشرقة ساطعة ، والثانية مظلمة قاتمة .

« تمت »

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٨٠/٥٧٠٠
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧ - ٧٣١ - ٨٥ - ٨

٢٠ قرشا

هذه الرواية

ولد فكتور هوجو اديب فرنسا الكبير عام ١٨٠٢ فى مدينة بيزانسون باقليم اللورين فى اسرة عريقة ، وتلقى تعليمه فى احد الاديرة بباريس . وقد فاز وهو بعد فى السابعة عشرة بثلاث جوائز فى مسابقة للشعر ، وكان اول ما نشر له كتاب يضم قصائد غنائية . وتعاقبت بعد ذلك مؤلفاته فى الشعر والرواية والدراما حتى توطد مركزه كزعيم للحركة الروائية فى الادب الفرنسى . ومن اشهر رواياته « سيدة باريس » و « آخر يوم فى حياة المحكوم عليه بالاعدام » ، ومن اشهر مسرحياته « مارى ديلورم » و « لوكريشيا بورجيا » . وقد تعرض هوجو للنفى فى عهد نابليون الثالث ، وفى هذه الفترة الف عديد من الروايات اشهرها رواية « البؤساء » وكانت فى عشرة اجزاء ، ثم « الرجل الضاحك » . ولم ينقطع عن التاليف رغم اشتراكه فى الانشطة السياسية التى ابعدته عن فرنسا حينا آخر اصدر فيه هذه الرواية ، وهى احدى الروائع تجرى احداثها الحافلة بالبطولات والمغامرات والمؤامرات فى ظل الثورة الفرنسية بعد اربع سنوات من قيامها ، وقد حشد فيها المؤلف القدير كثيرا من المواقف الانسانية الرائعة والمآزق التى يشت[illegible] بين العاطفة والعقل وبين المبادىء والقيم مما يجعل الرواية اقرب الى الدراما ملحمية لا تتفتق عن مثلها سوى